حسن علي ابراهيم

مصادر الخوف والواقع

إحساساً وشعوراً

الإهداء

إلى تلك الهالة التي لاترى بالعين، تنسل منها، طيوف، من حبيبات رماد الهيكل، الذي طوته الأقدار، وخرمت منها القامات السبع السامقة، والتي انطوت في ظلال الزوايا، والنوت بالاصفرار، حرماناً من أشعتها التي تضخ الحياة بالوريد والأعصاب إلى البقايا من رفاتها التي يندفع منها، من خلال تلك الثقوب، دوائر من الطيوف، تتسع كلما لامست ضوء الشمس، لترتفع كالتنين تارة، وتلتوي تارة أخرى،بحثا عن زفير البادها التي فقدت التوازن، من الشهيق، حنيناً، وهي تخادع الخيال المفترض لتلك التي التقينا معها، بالحرمان من تبادل الدفىء وغذاء الروح.

إلى اللحد الذي توارى فيه، من أنا، هو منه.

إلى الشمعة التي انطفأت، وتركت قطرات، أنا منها.

إلى الشمعة التي انطفأت، وتركت قطرات، أنا منها.

أقدم لها، من كانت نزيف حروفي، من بصيص الجمر، الذي ينسّ تحت الثرى.

أقدم لها بعضاً من وحي طيوفها، التي تلفني، وكأن الفراق للتو، حدث. لعل خيالي يرقد،وهو يسبح في الجهات الست، يفتش عن لحظة، يعانق بها الخيال بالخيال، لتستقر بين ضلوعي نهاية العدم،ويمحى من العالم الآخر، سوء الطالع، الذي كان سبباً للقهر في هذا العالم الذي امتحنت به .

وإلى أن نلتقي في العوالم الأخرى، عهداً أن تكون مداميك حروفي، وما يشع منها، من دلالات، في مسيرة حياتي، اعترافاً بالخطيئة واصراراً على استبدال القميص، وأن تكون قبلتي، دائماً إلى فاطمة الزهراء –أمي– كيف لا، والجنة تحت أقدام الأمهات.

حسن ابراهيم

المقدمة

تعامل الإنسان البدائي بالغريزة بتقريب الكتف، إلى الكتف الآخر، من بني جنسه شعوراً منه بالأخوة الانسانيه التي هي حاجة داخلية ملحة له وللآخر، لإبعاد شبح الخوف والغربه والوحشة الذي كان يخيِّم على الجنس البشري الذي كان بريئاً من خلفية أي معرفة أو معلومة تقع تحت الشمس، وعبر مرحلة زمنية لاتعرف حدودها وبداياتها التي تقدر بآلاف السنين، تقهقر الجنس البشري، وعانى من الظواهر الموجودة على الأرض، واستطاع عبر هذه الرحلة اكتشاف المفيد والضار عن طريق الصدف، فأبتعد عن المؤذي والضار، وتقرب من النافع، ومن هنا جاءت فكرة الخير وفكرة الشر.

ولقد تم تصنيف هذين المفهومين من خلال نفع وضرر هذه وتلك من الظواهر،فالخير ماينفع النفس والآخر، والشر ما يؤذي هذا أو ذاك، ومن هنا تطور هذا المفهوم، لتشكيل الضمير والوجدان عبر هذه التجارب من خلال الزمن الذي مر على البشرية.

والإنسان البدائي بعفويته وفطرته البريئة، كان يميل دائماً في كل تصرفاته لحماية ذاته من الظواهر الجامدة والمتحركة، الموجودة على الأرض والنازلة من السماء. واستطاع مع الزمن أن يكتشف شر هذا وخير ذاك، وأن يرسخ في ذاكرته صورة هذا الشر، وخير ذاك، وأن يعلمه ويلقنه للآخر بالإشارة أو بالفعل العملي تجاه الآخر، من أجل نقل هذه المعلومة، لتصبح مفهوماً يحفظها الكل، ليستفيدوا منها، بالإقتراب أو الابتعاد عنها، وفي كل الظروف كان الإنسان البدائي يعمل جاهداً لتشكيل الأنا الجمعي لمواجهة من يهدد وجود الجنس البشري بالموت.

ولقد تشكلت هذه التجمعات، ودرسنا في التاريخ كيف كانت ضفاف الأنهار محطة الأنظار القدماء، كي يستغلوها لخدمتهم، كما درسنا الهجرات العربية

وكيف انطلقت من الجزيرة العربية إلى الجهات الأربع بعد أن نضبت خيراتها، وبالرغم من البدائية في كل شيء كان الإنسان يتمتع بالبساطة، حيث لم يكن هناك تصنيفات تميز هذا عن ذاك، ولقد تشكل عند الإنسان البدائي مفهوم الخوف من مظاهر الطبيعة الموجودة بين الخافقين، فعبدها لأنه رأى فيها مصدر خير، وابتعد عن المظاهر التي ترعب، وربما عبد البعض كي يتقي شرها، ولقد تشكلت مفاهيم للخير والشر وتطور هذا المفهوم عبر المعتقدات التي تسطحت على الأرض منذ هابيل إلى الديانات الكتابية، فالقاسم المشترك الذي كان يجمع الديانات الهنديه والصينية والبابلية والفارسية واليابانية والمصرية واليونانية القديمة، هو الثواب لمن يعمل خيراً والعقاب لمن يعمل شراً، وغاية هذه المعتقدات خدمة الإنسان وعدم الاعتداء عليه وعلى حياته وحقوقه، إلى أن ظهرت الديانات الكتابية، وهذه الأديان ركزت على المحبة والتسامح والإحترام، ووعدت بالجنة والنار وبالحساب والعقاب والجزاء.

كل هذه الرسالات ومن دعا إليها، سواء أكانوا رسل وأنبياء أو مبشرين من المفكرين الذين أبدعوا مذاهب وفلسفات لتحديد العلاقة مابين الواحد والموجود، كلها تدعو إلى فكرة الخير، وتحارب الأفكار الشريرة التي تلحق بالإنسان الأذى والضرر.

ونستثني من ذلك العقائد الدينية الصهيونية المتمثلة بالرب «يهوه» الذي يدعو إلى القسوة وذبح حتى مؤيديه، عندما تلين قلوبهم تجاه الشعوب الأخرى، هذا الرب الذي دعا إلى حرق النبات والحيوان والإنسان من أجل أن يحل شعبه في المكان المحروق، حيث يعتبر شعبه هو الشعب المختار وعلى جميع الشعوب الأخرى أن ترضخ لمشيئة هذا الشعب، وهذا مانراه اليوم على الساحة الدولية حيث لايوجد سفك دماء فردي أو جماعي، إلا وخلفية ذلك الصهيونية العالمية التي تنفذ أمر (يهوه)، والدليل على ذلك كيفية إعدام إسحاق رابين عندما مال إلى السلم، حيث يقول قاتله إن الرب أمره بقتله، لأن قلبه لان تجاه أعدائه .

الفكرة الأساسية لهذا الكتاب هو تحديد مصادر الخوف، وأثر ذلك على سلوك الأفراد والجماعات، موضحاً أنه لاضرر يلحق بالفرد أو الأسرة أو المجتمع بالإلتزام بمصادر الخوف المعنوية، وتبيان جوهر الأديان عبر مراحل التاريخ ، وجوهر الأديان الكتابية التي أوضحت المطلوب، كي يعيش كل البشر في أمان للحقوق والواجبات .

إن سياسة التلفيق والنفاق في المبادىء، يجب أن تكشف، لأن مراكز التنوير وضعت حداً للظلام، وماذا يستفيد الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه، وفي النهاية، هل يتضمن الإنسان مساحة المتر المربع الذي يدفن فيه ، فالإنسان حاليا متناقض مابين ظاهره وباطنه، وهاجسه خلق الأضاليل والبدع ومختلف السبل لجمع الأموال وقهر الآخر بها، وغالباً من ينحوا هذا المنحى يدَّعي بحمل المبادىء الروحية التي أتى بها الأنبياء والرسل، هذا هو الحال حالياً، وما يلوح في الأفق لايبشر بالأمل، والنبوءات السابقة يقلبون الصحف لمراجعتها، خوفاً من صدق النبوءة التي تقول«تؤلف ولاتؤلفان».

تلازم الشكل والمضمون في مفهوم الخير

بدأت مقولات الخلق، بتحديد فكرة الخير والشر، بتحذير الخالق أبانا آدم، من تناول ثمار تلك الشجرة، التي تغوي الناظر إليها، ليتناول ما طاب ولذ، من ثمارها الشهية ولاندري إن كان المغزى من هذه المقولة درساً من الخالق لمخلوقاته.

ولاشك إن الإيحاء من ذلك، عظة ودرس لنبي البشر، للأخذ بالعبر، من أجل أن تستقيم الحياة على أعراف مع الزمن، لتتطور هذه الأعراف إلى قوانين تنظم العلاقات العامة بين البشر .

وللإيحاء هذا، بعدٌ، لتوضيح فكرة الخير والشر، فكرة الحساب والعقاب، فكرة الجزاء والثواب، ونشوء رادع من خلال ذلك، لأيرى،خلق وجداناً وضميراً مرتبطاً بالواحد اللاموجود، خلق هيولا، مستيقظة في ذهن المخلوق، تردع الأحاسيس، وترتبط بالشعور، الذي يستمد حيويته من هالة الواحد اللامحسوس، لتتأصل قيم أخلاقية، ترتبط بالواقع لتكون هذه القيم وهذه الأعراف كقوانين معنوية غير ملموسة، تكبح الشر، وتمنعه من التأصل والتأصيل في الوجود، وتجعل مساره ضيقاً في الحدود الدنيا في سلوك البشر.

فالانسان يولد، منذ الطفولة الأولى، أملس الحواس، وليس له شعور متأصل، وهو كأي مخلوق ناطق، وغير ناطق، يحتاج إلى الترويض، والتعلم لاكتساب المهارات، فهو لايعرف الخير ولاالشر، ولاالحساب ولاالعقاب، ولاالعمل الحسن أو القبيح، حيث أثبت العلم أن هذه الصفات لاتولد معه، كالكذب والصدق والأمانة والغش، ومن هنا يأتي دور الأسرة والمجتمع، في تحديد معالم هذا الطفل، في التعامل مع الواقع الذي يحيط به، مع العلم أن للوراثة دور لاينكر في تحديد وتأصيل الصفاة بألوانها المتعددة، وأهمها صفتا الشر والخير.

يقول المفكر ندرة اليازجي في كتابه «رسائل في «مبادي الحياة» «أحب أن أعلمك أن الفضيلة والمعرفة والوعي والمحبة والغاية النبيلة،والحرية والفاعلية، بذور نزرعها في الحقل الأجتماعي، هذا، لأن المجتمع هو النطاق الذي يحقق فيه الإنسان إنسانيته، وكونيته في آن واحد، ولاأبالغ إن صرحت، بملء قلبي وعقلي، أن إنسانية الإنسان تجسد في اجتماعيته، وعلى هذا الأساس أدعوك - يقصد صديقه - إلى تطبيق مضامين المبادئ والقوانين الحياتية التي تتبناها في الحياة الاجتماعية، وذلك لكي تكون خدمة الإنسان، ومحبة الآخر، وصداقة جميع الناس، وتحمّل جميع الآراء والمعتقدات، الغاية القصوى والنهائية التي تتمثل فيها حياتك، وتتجلى فيها «القيمة» المعزوة إلى وجودك»[1].

الحياة البدائية الأولى، في العصور القديمة، تختلف عنها اليوم في القرن العشرين ومطلع هذا القرن، الذي دخلت فيه العلوم مرحلة متقدمة كغزو

[1] - رسائل في مبادىء الحياة - ندره اليازجي ص/ ١٢/

الفضاء وتسخير الهواء الذي لايستطيع أحد مصادرته لنشر المعلومات والاتصال بالآخر عن طريق علم الأنترنيت الذي ليس له حدود معلومة.

الإنسان البدائي، كان يتخذ من الظواهر، موقفاً يناسبه، لاستمرار وجوده على الأرض، وبتصرفاته هذه، يشبه الحيوان الغير ناطق والذي لايفكر، وإنما بالغريزة يتصرف بشكل تلقائي وآلي، فالذي يؤذيه ويؤلمه من هذه الظواهر، يبتعد عنها خوفاً على حياته، وما ينفعه ويقدم له الدفء المادي، يقترب منه حتى القداسة.

فالظوهر الطبيعية، كالعواصف والأنهار والبحار والرياح والأمطار والرعود والبروق والشمس والقمر، والليل والنهار، والنجوم، عبدها وقدسها، خوفاً من بعضها، وتقديراً للبعض الآخر، لما تقدم له من خير ودفء واطمئنان واستقرار لحياته ووجوده.

هذه الظواهر، شكلت مفاهيم في ذهن الإنسان البدائي، وعلمته وأكسبته، مفاهيم، ترسخت باللمس والحواس الخمس، عن جوهر هذا وما يقدمه من خير، وشر ذاك الذي عليه الإبتعاد عنه.

من هنا ترسخت جدلية العلاقة، مابين الخير والشر، والثواب والعقاب، من قصة آدم، وكيف أغوته أم البشر حواء بأكل التفاح.

إن التعاليم السماوية، من خلال رسالاتها الإنسانية، أعطت للخلق المعنى والبعد الإنساني،لفكرة الخير والشر، حيث ارتبطت هذه بالنوايا، وصدقها وارتباطها بالواحد، وقيمة الخير والشر، وثواب وعقاب هذا أو ذاك، عند التطبيق.

إن الشاة التي قدمها هابيل، تمثل الإيمان بالخير وثواب ذلـــك في الزمـــان المستقبلي المدروك وغير المدروك.

فالخير يكون بالشعور والإحساس، وعندما يكون هكذا، لابد له من ثواب وأجر في الحياة الدنيا والآخرة .

وليس ماقدمه قابيل إلا بعكس شاة هابيل، ففكرة الخير، لابالشكل فقــط، وإنما أيضاً بالمضمون.

والشكل والمضمون، عندما يتعانقان، يكون فعل الخير خيراً، ولايكون فعل الخير خيراً، إلا بطغيان المضمون على الشـــكل، وإذا طغـــى الشـــكل علـــى المضمون، تغلب المبنى على المعنى، وكانت النتيجة حـــب الظـــهور وتصعـــير الخدود، وهذا يكون بدافع المنفعة الآنية، أو المستقبلية، وضحك على الـــذوات الأخرى، لهدف مادي آني ومنفعة دنيوية رسمها المتناقض بين عالمه الداخلــــي وعالمه الخارجي بين شكله ومضمونه، والذي لايؤمن بشيء إلا بالقدر الـــذي يخدم مصلحته الذاتية.

وحتى يتطابق عمل الخير فعلاً وقولاً يجب أن يتطابق مع ماقاله الإمام علـي (كرم الله وجهه) «لايكلّف المرء أخاه الطلب إليه إذا عرف حاجته، تـــزاوروا، وتعاطفوا وتبادلوا، ولاتكونوابمترلة المنافق الذي يصف مالايفعل.»[1]

فالخير بإيصاله إلى من احتاج إليه، بفعل عفوي تحت جنح الظلام وبتقديمه للمحتاج دون الطلب منه ذلك، وهنا يكون عمل الخير كل الخير، ومن هنـــا نرى أن عمل الخير يكون بالاندفاع الذاتي النابع من المسؤولية في الدنيا وعنـــد

[1] - تحف العقول / ص/ ١٠٥/

الآخر اللامحسوس، ومن تحريك الضمير والوجدان، بقصد تنفيذ واجب عليه، وملزم به، لالغاية وإنما فقط لعمل الخير، وتسديد ضريبة القيم الأخلاقية التي ألزمه بها وجدانه وضميره وتعاليم الرسالات السماوية السمحة.

العمل الصالح، يتجلى من خلال النتيجة التي عرفها الجميع، والمستخلص من الرواية التي تحدثت بها كل الكتب عن قابيل وهابيل، وما النتيجة التي أدركت، إلا درساً ليتعلم منه بني البشر، لكي يكون مضمون الإنسان منسجماً مع شكله، وباطنه وظاهره، متوافقان، بحيث يدل الباطن على الظاهر والعكس صحيح، ومن هنا يجب أن يكون المضمون مغلفاً بفكرة الخير الخالصة لعمل الخير، حتى تكون النتائج إيجابية لفاعله، ولمن احتاج إلى فعل الخير.

تطور مفهوم الخير عند الإنسان البدائي

معتقدات الانسان البدائي تجمعت كلها حول فكرة الخير، أياً كان مظهرها، وأياً كان موقعها، سواء على الأرض أو في السماء، وكانت تستدعي هذه الظواهر الالتفات والتحديق، والتفكير بها، إما لجمالها، أو ما ينعكس منها على الأرض عند ظهورها، وأما للخوف الذي تتركه وتخلفه وراءها عندما تغيب عن الأنظار، وهذا المدى الذي تطيف به في الظهور والاختفاء، وهذا التقلص في المشهد الذي لايوصف، جعل الإنسان بسطحيته الأولى وبالبدايات، يميز بين هذا وذاك، وهذا خلق فترة ترقب وانتظار بين المد والجذر، والظهور والاختفاء، للظواهر الطبيعية، هذه الفترة من الإنتظار والترقب ضمن الزمن الضائع، جعلت الإنسان البدائي من خلال الملاحظة وما تسقطه الظاهرة على الواقع، وما ينعكس من ذلك على الإنسان البدائي، جعلته يقع بين الإرتياح والقلق، أو الخوف، وهذا أدى إلى وشم ذهنه وفكره، وعقله، ليرتبط بالذي يريحه، وبالتالي يبتعد عن الظواهر التي تقدم له الخوف والرعب والأذى وعدم الاستقرار.

لقد انغرس في شعور الإنسان البدائي، ولامس من خلال حواسه الخمس، ارتياحاً واطمأناناً لهذه الظاهرة وتلك، وقلقاً وخوفاً من تلك، وهذا أتى كما

قلنا سابقاً من ملامسة الحواس لشعوره، عن عظمة المصدر المرسلة طيوفه من منبعه إلى الحواس الخمس، ويكمن عظمة هذا، وهيبته في انتظامه في الظهور والإختفاء، وعدم قدرة المخلوق احتباس هذا الطيف.

الظواهر التي تسقط طيوفها على الحواس وتلامسها، أو تكون ضمن محرقها عديدة وما أكثرها، حيث البعض منها تنفر منها الحواس، كونها تقدم الأذى والموت، ومظاهرها المخيفة والمرعبة، كوّنت عند الإنسان بدائي، بعد الخطر الذي أحدثته، مفاهيم ، وماهيات، عن شرها وخيرها، عن الذي تقدمه من قلق وخوف وأذى، لذلك ابتعد عنها الإنسان، كالرياح والعواصف والنار والأنهار الهائجة، والوحوش المفترسة، والأفاعي المرعبة، ونظم لها الأغاني والمقالات الإيمائية بالحواس، لرشد الآخرين أمثاله، للأبتعاد عنها، لأن هذه الظواهر تقدم، وتجلب الرعب والخوف والموت للإنسان.

إن فكرة الخير وجدت في كلتا الظاهرتين عند الإنسان، فالمخيف الذي يجلب الرعب والأذى، كان لابد من تركه وتجنبه والابتعاد عنه لكي يبتعد الشر عنه، والظاهرة التي كانت تجلب الخير والدفء والاطمئنان كان يتقرب منها، لأن منعكساتها عليه، لاتشكل خطراً عليه، وهي دليل عند بعضها للوصول إلى شاطئ السلامة والأمان، لذلك قدسها وعبدها، واعتبرها مصدر ورود الخير والاطمئنان، حتى الظاهرة الشريرة في ابتعاد الإنسان عنها، يُجلب له الخير، كذلك عبدها وقدسها، الإنسان البدائي أحياناً واعتبرها مساوية للمظاهر التي تجلب الخير.

وفي كلتا الحالتين كان خير الإنسان هو المطلوب.

ومن هنا نرى، إن سلامة الإنسان، النفسية والجسدية كانت هي الهاجس الوحيد عند البدائي، لكي يتأقلم في الطبيعة الموجود عليها، للتغلب على مظاهرها، والاستفادة منها، وجعل هذه المظاهر تحت سيطرته، إحساساً وشعوراً، ليعيش كما يجب.

هكذا نشأ شعور الخوف الجمعي عند البدائيين، ومن كان متميزاً في عقله وملاحظته، استطاع أن يغرس في الآخرين خير هذا وشر ذاك، لتتشكل عند الإنسان البدائي نواة الخير أو الشر، وبالتالي، رد هذا وذاك إلى المصدر الحقيقي الذي يمثله، لكي يكون هذا المصدر، موضع تفكير الإنسان البدائي، ومن هنا أتت معاناة الإنسان القديم في معالجة هذا المصدر وتحليله لوضع حقيقته في أذهان الآخرين ليكون هذا المصدر القاسم المشترك الأعظم عند الناس للتأثير عليه في قدرته على تقديم الخير كل الخير للناس، ومن ثم تصويب وتوجيه الإنسان البدائي له وتوحيده، لتتجمع الآراء وصهرها في رأي واحد، لتوحيد هذه الآراء تمهيداً لتشكيل النواة الأولى في التجمعات البدائية تحت الشمس.

الإنسان، أي إنسان، يميل بالفطرة إلى الديمومة في الحياة، وهذا حقه بالعيش على سطح الكرة الأرضية، ومن أجل هذا الاستمرار، انطلاقاً من ذاته، كان يميل إلى العيش في الأماكن التي كانت تؤمن له هذا الاستمرار، تسلق الأشجار، خوفاً من المخلوقات الأخرى التي كانت تهدده، لحماية جسمه من عبثها، وتسلق الجبال العالية وعاش في الكهوف، ليتقي شر البرد والعواصف والرياح والأمطار ونتائجها، وابتعد عن السكن جنب ضفاف الأنهار في مواسم الطوفان، وعاد للعيش جنبها لاستغلال الطمي الذي جلبته، لزراعة مايفيده،

ويصطاد من الماء السمك وغيره، وتناول الماء كشراب يتقي به شر الفصول الحارة والجافة.

لذلك كان الإنسان البدائي يستغل كل ظاهرة تقدم له الخير، ويبتعد عن الظواهر التي كانت تقدم له الخوف والرعب، ومن هنا أتت فكرة الخير والتقديس والعبادة.

تطورت هذه الفكرة، بعد ما توضعت تجمعات من البشر هنا وهناك وبعدما استقرت في أماكن متميزة في مظاهرها وظروفها المناخية وخيراتها التي ساعدت على استقرار الإنسان البدائي، من خلال ما يوجد عليها من وسائل وموارد وتحمي الإنسان، وتقدم له الغذاء والأمان لاستمرار حياته.

ولذلك نرى أنه منذ الطفولة الأولى وظهور الخلق، بهذه الصورة المتعددة على سطح الأرض، أخذ كل جنس، أو نوع من هذه المخلوقات، بالبحث العشوائي في عملية التأقلم، للحفاظ على النوع وديمومته، على الأرض، هذا التأقلم، سيق إليه المخلوق بالغريزة، ليلبي حاجة تدفعه، ليروي ظمأ، أو جوعاً، أو نقصاً في الدفء المعنوي خوفاً من الآخر، هذه الحاجة يدفعه إليها دافع لأيرى، ولايلمس، هذا الدافع، ينبع من داخله، يضغط عليه، لأن الحاجة والنقص الموجود في عالمه الداخلي، يملي عليه التفتيش عن مصدر، يحقق له الحصول على الحاجة التي تنعشه، وتلجم الإندفاع، والعوز الذي يحتاجه، ليروي منها الإنسان وغيره من المخلوقات، الحاجة التي سبق إلى البحث عنها، بشكل لاإرادي، ليتناول منها كفايته،وينقذ نفسه من الهلاك.

إن عملية البحث هذه استمرت ملايين السنين عبرها نسخت الطبيعة وعوامل الطبيعة، ملايين المخلوقات ومابنته من معالم، كانت تدل عليها، بظروف مجهولة لم تصل إلينا إلا في عصور متأخرة، نتيجة الأمية التي كانت هي الطابع العام، للشعوب البدائية .

هناك حلقات مفقودة، وغير متصلة في عملية التواصل مابين الشعوب، لأن وسائل التواصل كانت معدومة وبدائية، والتخاطب بين الشعوب، باللغة، لم يكن يعرف ولم تكن هناك، لغات في العصور البدائية متعارف عليها لتكون وسيلة في جمع البشر والتحدث والتعبير عما يجب صنعه وما يجب فعله، من أفعال، تحرك الوجدان الجمعي، من أجل تشكيل المجتمعات الإنسانيه لمقاومة الطبيعة، والوحوش التي كانت تفترس الإنسان هنا وهناك، ومن أجل تشكيل نواة التآلف والتحالف بين هذا أو ذاك من البشر، لمواجهة عاديات الزمن وظروف الدهر ونوائبه.

لقد كان الإنسان، أشبه بحركاته وتصرفاته وتنقله وعدم استقراره، بالمخلوقات الأخرى، التي تسير في يومياتها بالغريزة لتأمين وجودها على الأرض، فالطعام والشراب والمبيت كله بالغريزة والصدف.

لقد ترقى الإنسان من خلال الصدف التي مرت عليه يومياً، فما هو ضار يبتعد عنه كالماء الجاري بعنف، يتقيه ويبتعد عنه، من هنا تشكل عنده إحساس وشعور بأن هذا ضار عليه تجنبه هو وأمثاله، وبالممارسة من خلال عامل الزمن تطور شعوره وإحساسه، بنفع هذا وضرر ذاك. من هنا نرى أن الكائن الحي الذي نسميه إنساناً، والذي هو سيد الكرة الأرضية حالياً، استخدم عقله

وذكاءه وعبقريته في سبيل كشف أسرار الطبيعة، واستثمارها لخيره وشره تبعاً لهواه، وهذا التطور الذي حصل على سطح الكرة الأرضية يعــود إلى مــابعد ظهور الإنسان عليها، وحيث عمره يعود إلى ماقبل ظهور الإنســـان بملايـــين السنين، تطور خلالها سطحها الخارجي، واختلف توزيع البر والبحر، وظـهرت عليها فصائل حيوانية ونباتية، عاشت وانقرضت، وتركت لنا آثارهـــا علـــى شكل مستحاثات.

تطور الأدوار التي مر بها الإنسان

يقسم العلماء عمر الأرض إلى أدوار جيولوجية، جعلوها بالترتيب:

الدور الأول والثاني والثالث والرابع، وقسموا كل دور إلى عصوره وحددوا لكل دور وعصر تاريخاً تقريبياً، واستطاع الإنسان المعاصر أن، يعطينا صورة واضحة عن حياة الأرض القديمة وعصورها السحيقة، معتمداً على ماقام به من دراسات شملت عدة علوم، منها علم طبقات الأرض، وعلم الآثار، وعلم دراسة أصل الإنسان .

ومن هذه العلوم، عرفنا أن الإنسان، ظهر في عصر متأخر جداً عن ظهور الحيوانات والنباتات، ويرجح ذلك في أواخر الدور الثالث «الجيولوجي» وأوائل الدور الرابع.

في القرن الماضي، انتشرت نظرية «دارون» عن تطور الإنسان والمراحل التي مر بها، ومفادها أن جد الإنسان القديم هو القرد، ولكن أتت نظريات اعتمدت على البحث العلمي الأكثر دقة، والأكثر تجارب، أبطلت دعوى الإنسان القرد، وقادت الأيمان بأن الإنسان وجد إنساناً على الأرض منذ اليوم الأول الذي ظهر فيه، ولكن شكله العام وانتصاب قامته، واستخدام دماغه تأثر بالبيئة المحلية وقسوة

المناخ الذي كان يسود محيط الأرض، ومازال في تطور مستمر مع الزمن، يتأقلم ويعتدل حتى أخذ الشكل الذي نراه فيه اليوم.

إن نظرية دارون بإرجاع أصل الإنسان إلى القرد، لاتخلو من مآرب شريرة لاحتقار الإنسان وكل قيمة معنوية له ولاشك أن الرسالات السماوية أوضحت مصدر الإنسان وكيف كرم هذا الإنسان بالخلق والخلق العظيم، ومن يراجع بروتوكولات بني صهيون سيجد أنها تضمنت نظرة والتفاته إلى أصل هذا الإنسان، وترويج وتصميم هذه النظرية لتجريد الإنسان من قيمه الروحية والأخلاقية، وذلك بقطع صلته بأصله الإنساني وجذوره المرتبطة بأبينا آدم والأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى البشر، لتهذيب وتقويم السلوك نحو الفضيلة والتعامل الحسن بين جميع أفراد بني البشر.

ويجعل الإنسان أملس من الأرتباط المعنوي الذي يشده للتعلق بالأرض وبالمقدسات التي توجد على الأرض العربية، هذه المقدسات التي تعتبر العلقم والحنظل المرّ في حلق الصهاينة ومن تصهين.

ويفضل العلماء المحدثون، أن يسموا البشر الأوائل الذين عثرنا على بعض عظامهم واستنتجنا منها صفاتهم الفسيولوجية والفكرية، بالاعتماد على علم الطب المقارن، باسم أشباه الإنسان، وقد وجدوه في الصين «إنسان بكين» وجذر اندونيسيا،«إنسان جاوا» ومناطق أخرى، بينما يطلقون اسم «طلائع الإنسان» على السلالات البشرية الأخرى التي عثر على بقائها في مناطق متفرقة من العالم، وتتمثل في عدد من السلالات مثل سلالة إنسان هيد برغ، وإنسان غريما لدي، وإنسان كرومانيون، وإنسان شاتولاد، وأخيراً سلالة إنسان نياندرتال، التي كانت أكثر انتشاراً في جنوب اوربا وشمال افريقيا وفي الوطن

العربي، وقد انقرضت جميعاً، لتخلفها سلالات الإنسان العاقل الذي يمتاز بنمو مداركه العقلية، ومقدرته على استثمار موارد الطبيعة [1].

وهناك رأي بعض العلماء ومفاده أن الذي غشَّهم بالقرن الماضي وجعلهم يميلون إلى تسمية أقدم النماذج البشرية التي تعرفوا عليها باسم القرد، كإنسان جاوا وإنسان بكين، هو رؤوسهم التي تصوروها على شكل رؤوس القردة، وذهب عن أعين وفكر علماء هذا القرن التاسع عشر، إن فكي هذه المخلوقات كانا خلواً من الأنياب الكبيرة التي للقردة، وأن أسنانها تشبه أسنان الإنسان المعاصر، مع اختلاف في الحجم وقوة العضلات الماضغة.

لقد تطور الإنسان عبر التاريخ الذي لايعرف له بداية، وتطوره هذا ناتج عن الحاجة إلى التأقلم والتكيف في الوسط الذي عاش وترعرع عليه، وفي مقدمة هذه الحاجات تأمين الطعام والشراب والمسكن والملبس والأمن والأمان.

لقد استخدم الإنسان في البداية غريزته في تأمين ذلك، وقد تساوى في ذلك مع الحيوانات، وذلك في جمع والتقاط طعامه وقد كانت الصدف في الحصول على ذلك هي الأعم، كما أنه تعلم بالغريزة كيف يحصّن نفسه من شر الحيوانات، وذلك بالتسلق على الأشجار والنوم عليها، ثم استخدم أغصان الأشجار كوسيلة لمقاومة الآخر الذي يهدد وجوده، ثم اكتشف الكهوف والأدغال لحماية نفسه من البرد والحر والمطر والثلوج، إلى أن اكتشف أوراق البردي ليستر بها جسمه ويقي نفسه من شر الحر وبرد الشتاء.

وقد اهتدى الإنسان غريزياً إلى الحجارة للدفاع والقنص والقطع، ثم استخدم جلود الحيوانات للباس،والنار سلاحاً ونوراً ووقوداً وأخذ الإنسان يتطور بهذا

---

[1] -الإنسان العربي والحضارة / أنور الرفاعي / ص ١٠-١٢

الاتجاه، نحو الأمام، مستفيداً من تجاربه العشوائية، محتفظاً بالإيجابيات في ذاكرته، من خلال يومياته، إلى أن أصبحت هذه الخلاصات التي ارتاح لها، ولبت له حاجة العوز المعنوي والمادي، أعرافاً وقوانين ثابته، سخرها لمصلحته، ونقلها إلى أمثاله من بني البشر كفوائد لهذه الظاهره وتلك، وذلك بالإشارة تارة، وتناول هذه المادة، وتلك تارة أخرى، ثم بالغمس من هذه الماده ليعلم الآخرين، أن هذا نافع وذاك ضار، وهكذا حتى ظهرت مجموعات بشرية، أكثر تقدماً أو حضارة، سماها العلماء بسلالات الإنسان العاقل الذي يعتبرونه الجد الأول للإنسان الحالي.

وقد ارتبطت العصور التي قسمها العلماء، بتطور الإنسان من حال إلى حال، بتطور الوسائل التي استخدمها، والطابع العام الذي كان يسيطر على تقاليده وعاداته.

فالعصر الحجري، يعني أن الإنسان، كان يعيش في العراء، ويسكن الكهوف ومخابئ الأرض، واعتمد في الصيد على حجر الصوان، كسلاح يعد صقله وتدبيب رأسه، واتخذ لنفسه أدوات من عظام الحيوانات وقرونها، كما أنَّهُ في هذه الفترة، عُرف الإنسان فناناً في النقش والحفر والرسم، حفظت لنا المصادر التي لجأ إليها صوراً آدمية وحيوانية، ملونة دلت على ذوق فني تام[1].

في هذا العصر تطور سلاح الإنسان، فاستخدم نوعاً من الحجارة، أقسى من الصوان، فسمى العلماء هذا العصر بالعصر الحجري المصقول.

ثم أصبح الإنسان راعياً وتمكن من تدجين بعض الحيوانات، ثم تحول إلى مزارع، يحرث الأرض ويستنبتها ويقطع الأشجار، إلى أن استقر به المقام، فصنع الأكواخ والفخار،وعاش على شكل جماعات، تربط بين أفرادها، روابط الدفاع

---

[1] -الإنسان العربي والحضارة لأنور الرفاعي ص/ ١٣/

المشترك، ضد الخطر المشترك، من فيضان النهر أو هجوم حيوان، أو جلب المنفعة المشتركة، من رفع السدود أو حفر الأقنية، ومن هنا نشـــأت أولى المجموعـــات البشرية على شكل قرى .

ثم تطور الإنسان فاستخدم النحاس والذهب، وخلط بعضها، فحصل علـــى خلائط، ثم استخرج البرونز بخلط النحاس والقصدير، ثم استدل على الحصـــان وصنع العجلة، واكتشف الحديد، واستخدم البقر في الزراعة والطعام والألبان.

لقد استطاع الإنسان في هذه الفترة، أن يستعبد الحيوان، وبذلك حقق المزيد من الإنتصارات على الطبيعة، وزيادة الإنتاج من الطعام ويبدوا أن الحمار كـــان أول العبيد من ذوات القوائم الأربع، وتلته البقرة وابنها الثور.

وبذكر الدكتور صفوح خير في كتابه الجغرافية الاقتصادية الجزء الثـــاني في المنتجات الزراعية والحيوانية «إن البقرة الحمقاء وابنها الثور الذي يتميز بـــالجلد وتحمل المشاق، قد يشد إلى البقرة والثور بنير يوضع على الرأس والكتفين ليجران المحراث والمركبة ذات الدولابين منذ عدة قرون»[1] .

لقد تطور الإنسان من حياة بدائية، شبيهة بحياة الحيوان إلى اكتشافه بفضـــل تطور ذكائه، أسرار الطبيعة واحدة بعد أخـــرى، واســـتثماره لـــثروات الأرض الحيوانية والنباتية، بعد صنعه للأدوات التي يحتاجها لذلك .

ولقد تطور عنده النطق، وامتاز بذلك عن سائر الحيوانات، فأوجد اللغـــات وعبر عما يجول في نفسه بالكتابة والرسم والنحت.

---

[1] -الجغرافية الاقتصادية ج٢ / الدكتور صفوح خير ص/ ١٣/

كما اهتدى الإنسان القديم إلى تكوين القرى الصغيرة من التجمعات البشرية، لما في ذلك من حماية الكل من الوحوش الضارية ثم تطورت الأعراق والتقاليد وأصبحت قوانين يحتكم إليها كل أفراد المجتمع.

إن حضارة الإنسان وتقدمها ترعرعت في بيئات متعددة متفاوتة المظاهر، وعلى أيدي شعوب مختلفة الأصل الجنسي، والملكات والمذاهب والعقائد والميول، وقد انتقلت الحضارة من الشرق الأدنى إلى جنوب أوروبا، إلى جزيرة العرب والوطن العربي والإسلامي، فغرب أوروبا فالصين والهند وفارس.

واليوم تتجاذب الحضارة بين الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا، وقد تنحسر هذه إلى دول أقل حضارة، ليثبت التاريخ، أنه لايوجد عرق ولادولة تجعل الحضارة تتمثل به أو بها

ومن الصعب تحديد المنطقة التي سبقت غيرها إلى الإبداع الحضاري، لأن طلائع الإنسان، وجدت في مناطق متعددة من سطح الأرض .

يقول المؤلف والمؤرخ أنور الرفاعي: «هناك من يتعصب لوادي النيل، ويعتبر مصر مهد الحضارات، وهناك من يتعصب لوادي الرافدين فيعتبرها المهد الأول، وآخرون يرون في وادي السند في الهند أو في حوض نهر الهوانغ في الصين منبتاً لحضارة الإنسان».[1]

والواقع أن طلائع الإنسان وجدت في الأماكن التي توفرت لها عوامل الحضارة كالأنهار الجارية، والأرض المعتدلة والخصبة، وكل مايحتاجه الإنسان القديم من طعام وشراب، وطبيعة معتدلة بصقيعها، أو لهيبها، وأمطارها، ولذلك

---

[1] -الإنسان العربي والحضارة لأنور الرفاعي ص/ ١٨/

كانت أحواض الأنهار الكبرى كالنيل والرافدين، والسند وهوانغ هو، جميعها مهداً لحضارات الأمم التي درجت فيها وعاشت على ضفافها .

لقد اعتبر المؤرخون، أرض الوطن العربي موطن الحضارات الأولى وملتقى حضارات العالم القديم، تفاعلت عليها مختلف التيارات، فكانت فيها حضارات أصيلة، ووصلها قبس من حضارات مجاورة، فأخذت منها وأعطتها، فكانت أرض الوطن العربي تنتج وتأخذ، وتمزج وتختار وتشع.

يقول: «ول ديورانت مؤلف قصة الحضارة» عن الشرق الأدنى بما فيه مصر «على هذا المسرح الآهل بالسكان، وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة والخيل المستأنسة والمركبات، وصكت النقود، ونشأت الحرف والصناعات، والشرائع والخدمات وعلوم الرياضة والطب والفلك والتقويم والساعات، وصورت دوائر البروج وعرفت الحروف الهجائية والكتابية واخترع الورق والحبر، وألفت الكتب، وشيدت المكتبات، ونشأت الآداب والموسيقى وهندسة البناء، ونشأت عقيدة التوحيد، ووحدت الزواج واستخدمت المرضعات وشربت الخمور ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ على هذا المسرح عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أروبا وامريكا ثقافتهما على مدى القرون، عن طريق، كريت واليونان والرومان، وقصارى القول - يتابع ول ديورانت - «إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أخذوها عن مصر وبابل وإن اليونان لم ينشؤوا الحضارة، لأن ما ورثوه منها أكثر ما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحروب».

ويعتبر ول ديورانت إن الحضارة الأروبية والأميركية هي من نتائج الشـــرق الأدنى، وعلى أمريكا والغرب تسديد هذا الدين والإعتراف بالفضل والجميل.[١]

[١] -الإنسان العربي والحضارة ص/ ٣٨/

الإنسان وتطور العبادات

قال أوغست كونت: «لاتتيسر معرفة معنى من المعاني معرفة جيـــدة، إلا بالاطلاع على تاريخه».[1]

فالحضارة كما ينوه عنها المؤرخ أنـــور الرفـــاعي في كتابـــه الإنســـان والحضارة،[2] هي توأم للدين، واعتبر أن كل مظهر حضاري له علاقة بـــالفكرة الدينية التي أوحت إليه، ويحدد مسار ذلك في تاريخ المعتقدات وتطور الأديـان، وعلاقة ذلك بتطور الحضارة في الوطن العربي فالعقيدة الدينية التي ســـادت في الوطن العربي، كان من نتائجها الإيحاء بصنع الأهرامات والقبـــور والتوابيـــت والمعابد والكتابات والتماثيل والنصب، وكثير من الصناعات الفنيـــة والأدوات الموسيقية حتى الرقص والموسيقى تقدما بسبب ذلك، لأن العقيدة الدينية كانت مسيطرة على الناس جميعاً.

فالمظاهر الحضارية كانت انعكاس للدين، فالإيمان بالخلود أوجد التحنيـــط وصنع المومياء، لحفظ الجثة من الفساد عند المصريين القدماء، وإيمان الســـومري

---

[1] - علم الأجتماع د . عبد الكريم اليافي ص/ ١٢/

[2] - الإنسان العربي والحضارة ص/ ٥١/

بالآخرة، دفعه إلى دفن أدواته التي كان يستخدمها في حياته، ليستخدمها في آخرته، شأن ذلك شأن المصري سواء بسواء .

كما كان يجسد الإله بالتماثيل، وقد أدى هذا إلى تقدم الذوق وتنمية المواهب والنقش، وصنع التماثيل .

إن الدافع إلى الميل لعبادة مظاهر الطبيعة كان بسبب الخوف منها وذلك لاتقاء شرها، أو بدافع الاستفادة منها، لأن الخير واضح فيها، فعبادة الكواكب المنتشرة في الفضاء الكوني، لأن فيه مصدر يشع بالدفء والخير والنور، تساهم وتساعد هذا الإنسان في عملية التأقلم والاستفادة والاستقرار على سطح الأرض، والإنسان القديم كان ضعيفاً أمام الرياح والعواصف وفيضانات الأنهار والسيول وهذه المظاهر كلها بظاهرها وباطنها قوى خفية أكبر منه، لأن مداركه لم تكن قد وصلت إلى الحد الذي يعرف ويدرك ماهيات هذه الظواهر وخصائصها المادية والمعنوية.

كما أن الإنسان فرَّق بين حيوانات نافعة، وأخرى ضارة، فعبدها جميعاً، إما لنفعها، أو لأنها مصدر خوف ورعب.

فالشعور بالمنفعة في كلتا الحالتين ساعد على نشوء العبادات.

ونعثر لدى فيلسوف المدرسة الهيلينية /كسينوفان كولوفونسكي/ القرن السادس قبل الميلاد والأثينيين /أناكسا غور/ /وانتيفونت/ (القرن الخامس قبل الميلاد) على فكرة مؤكدة مفادها أن البشر يصفون لأنفسهم آلهة على شاكلتهم ومثالهم، كسينوفان يقول:«الأحباش، إن آلهتهم ذُلف الانوف، سود البشرة، في الوقت الذي يتصور فيه أهل منطقة (فراقية) آلهتهم زرق العيون

شقرالشعور» . «لو كانت الثيران وغيرها من الحيوانات تحس الصور- كما يقول- فلربما صورت الثيران الآلهة شبيهة بالثيران، والجياد شبيهة بالجياد...»

وقدر الفيلسوف الأثيني /كريتي / القرن الخامس قبل الميلاد- بشكل صائب الدور الاجتماعي والسياسي الذي يضطلع به الدين إذ قال: ابتكر الناس الآلهة كي يزرعوا الخوف في نفوس الآخرين ويجعلوهم ينفذون القوانين، ويلتقي المؤرخ /بوليبي/ القرن الثاني قبل الميلاد- معه في ابداء رأي مماثل في دوافع ظهور فكرة الدين.[1]

ويعتبر /بول انري غولباخ / أكثر الفلاسفة استيعاباً لجوهر الدين، فهو يرى بدقة: في البدء كان الخوف لدى البشر الأولين، واعتقدوا أن الكوارث الطبيعية بالذات ماهي إلا أشياء مادية، ومن ثم أصبحوا يخضعون لموجودات غير مرئية، وكأنها تقاد وتوجه من قبل هذه الأشياء، وأخيراً مع تطور تصوراتهم، توصلو إلى فكرة، وحدة السبب الأول، العقل الأسمى، الإله .

ويعتقد كل من فولنيه، وديوبيوي، الفرنسيان حول أصل وتطور الدين، ولأول مرة في نهاية القرن الثامن عشر يطرحا ذلك على أساس تصنيفي، نظرية متكاملة حول ذلك دعيت بالطبيعية أو السماوية وقد افترضا على أن، ضعف الإنسان تجاه قوى الطبيعة الغاشمة ولّد الدين منذ البداية.

وفي كتابه (أصل جميع العبادات) لشارل ديو بيوي - لعام ١٧٩٤- ١٧٩٥- حاول البرهنة أن جميع آلهة الأديان القديمة وليس فقط الآلهة، بل حتى

[1] -الأديان في تاريخ شعوب العالم ت . د . أحمد م . فاضل ص/ ٢٠/

الأبطال الأسطوريين وأبطال الملاحم ماكانوا سوى تجسيد للشمس وللقمر وللظواهر السماوية الأخرى.

وكَتَبَ يقول: «إن عبادة الطبيعة كانت الديانة البدائية الفطرية والعامة الشاملة سواء في العالم القديم أو الجديد».[1]

لقد تعددت الآلهة في الوطن العربي، وانفردت كل منطقة بعبادة نوع من لآلهة تبعاً للظواهر الخارقة التي كانت توجد في كل منطقة عربية، فالشمس والقمر والنهر آلهة عند جميع الشعوب العربية وان اختلفوا في تسميتها، والمجموعة الشمسية تمثل أكبر الآلهة وأقواها والتي أطلق عليها أسم «رع» في مصر السفلى، وآمون في طيبة في عهد الإمبراطورية المصرية، وشمس في العراق، وكان القمر صنو الشمس في جزيرة العرب والهلال الخطيب، حيث السماء صافية، فيبدد الظلمات حين تغيب الشمس، لأن السماء صافية أكثر أيام السنة، وعبادة القمر اختلف فيها العلماء، هل نشأت جنوب اليمن، ثم حملها العرب من جزيرتهم التي هاجروا منها إلى جنوبي مابين النهرين ليؤسسوا دولة الآكاديين والآشوريين والبابليين؟ أم انتقلت من بابل إلى الجزيرة العربية.؟

والغالب أن عبادة القمر كانت من وحي سماء الصحراء العربية، حيث كان القمر الأول من بين الآلهة، تليه الشمس في المرتبة الثانية، بعكس بلاد الرافدين، حيث وضعوا عبادة الشمس بالمرتبة الأولى وبقي القمر مذكراً

---

[1] -الأديان في تاريخ شعوب العالم ت. د. أحمد م. فاضل ص/ ٢٢

والشمس مؤنثة، ومن زواجهما كانت البنت«الزهرة» وسميّ القمـــر باسمـــاء عديدة منها «وداً» و«المقة» واحتفظت الزهرة باسم عشتر أو عشتار.[1]

ولقد انفرد كل إقليم بآلهته المحلية، ففي مصر كانت الآلهة بصورة عفاريت برؤوس ضفاضع، أو بصورة بقرة برأس إنسان، أو بنسر أو كبـــش، أو أبـــن آوى، واحتفظوا للشمس برمز يمثل قرصاً بجناحين يبعث أشعته إلى الأرض،، أو جعلوا الصفر رمزاً لها، أو مثلوا السماء إما ببقرة أو بأمرأة حانية علـى الأرض، يرفعها الهواء إلى الفضاء.

ومن الأساطير المصرية، أن العالم كان فضاء أزلياً ثم ظهر فيه /رع/ إلـــه الشمس بقوته الخاصة فكان «الموجود بذاته» ثم خلق إلهي الهواء والرطوبـــة، الذين انجبا (جب) إله الأرض و(تحوت) إله السماء ومن زواج هذين الإلهـــين ولدت بقية الآلهة الأربعة، اوزيريس وايزيس، وست، ونفتيس، الـــذي توالـــد فيهم جميع الآلهة الأخرى وعرفت هذه الأسطورة بقصة التاسوع الذي خلـــق العالم .[2]

ومن أهم المعتقدات الدينية عند المصريين القدماء:

١- **الحياة بعد الموت**: وتكون هذه الحياة بعد الموت بشكل رحلة تتخللها عقبات ومخاطر، فإذا تمكنت الروح من اجتيازها، وصلت إلى الفردوس وعادت إلى جسم صاحبها، ليعيش فيه خالداً.

---

[1] -الإنسان العربي والحضارة ص/ ٥٣/ لأنور الرفاعي

[2] -الإنسان العربي والحضارة ص/ ٥٤/

والمقبرة هي مدخل العالم السفلي الذي يسكنه الموتى، والملوك- الآلهة - تستطيع مراقبة الشمس في رحلتها نهاراً، والقمر في حركته ليلاً، أما بقية الناس فيبقون في هذا العالم السفلي.

لقد اختار المصريون القدماء مدافنهم في مناطق جبلية جافة بعيدة عن رشح المياه، من أجل أن لاتبلى تلك الحاجيات التي توضع إلى جانب المدفون، كي يجدها ممتازة وصالحة للأستعمال.

تقول العقائد المصرية، إن جسد الإنسان وحده هو الذي يموت بموته في الوقت الذي تتواصل فيه حية بقية أجزائه المكونة لوجوده: فجسمه أسمه (رين)، وروحه (با) التي تطير من جسده في هيئة طائر يصعد إلى السماء، وأخيراً، صنو المرء الخفي(كا) الذي يحتل المقام الرئيسي في كافة هذه المجموعة من العقائد. إن (كا) هذه الروح الفريدة من نوعها، صنو الإنسان غير المرئي، لمصيرها مابعد القبر علاقة خفية بمصير الجسد ذاته، ويمكن أن تتعرض (كا) التي لاتعرف الموت إلى الهلاك من الجوع أو السّغب إذا لم يجرِ تذويدها بكل ماهو ضروري اثناء دفن الميت ومن الممكن أن، تقع (كا) فريسة غيلان ما بعد القبر فتلتهمها، إذا لم تجرِ حمايتها بصيغ سحرية، ومن الممكن احياء (كا) زمناً طويلاً إذا ماجرى في الأحوال العادية حفظ مومياء أو على الأقل صنع تمثال للمتوفى صغير.

ولقد تغيرت هذه الصورة عند المصريين للحياة ما بعد الموت. ولقد سعى الكهنة جاهدين لربطها في منظومة موحدة، ففي عصر المملكة القديمة ساد الأعتقاد بأن الراحل يطير إلى أرض (يالو) الواقعة في مكان ما في الغرب

ويستمر في العيش هناك، مثلما كان الأمر في هذ العالم، ويتمتع الراحلون من الأعيان والأثرياء بملذات الحياة وينعمون في جنات وارفة تحف بهم القداسة والعناية بتلبية كل ماتشتهي انفسهم .[1]

٢- يوم الحساب: آمن المصريون القدماء بالحساب بعد الموت، حيث يقوم الإله اوزيريس بمحاكمة الروح، بمحكمة تضم اثنين وأربعين قاضياً، ويحضر الإله الذي كان يعيش صاحب الروح في عهده، فيساعدها إن قدمت له في الدنيا الخدمات، تمر الروح أمام هؤلاء القضاة، وأكثرهم على شكل شياطين مخيفة، فتأخذ في سرد أعمال صاحبها الحسنة، ثم تبرأ من الآثام المختلفة، كالسرقة والقتل والكذب، وأكل مال القاصر، واليتيم، وشهادة الزور، والتلاعب في المكيال، والطمع والتكبر وسرقة هبات المعابد، وقد ذكر كتاب /الموتى / الذي كان يوضع في القبر مع الميت، ليسعده بهذه الاعترافات، إن المتوفي حين يمثل أمام الآلهة يقول للإله الأول: إني لم أقتل، وللثاني لم أسرق، وللثالث لم أتلصص، وللرابع لم تعظم ثروتي إلا من ملكي الخاص، وللخامس إني لم أكذب، وهذا إلى أن ينتهي من آخر قاضي، فيلتفت إليهم جميعاً ويقول: السلام عليكم أيتها الآلهة، إني أعرفكم وأعرف أسماءكم، لاتبلّغوا عني شراً، للإله اوزيريس.

ويقوم بعد ذلك الإله أنوبيس بوزن قلب الميت بميزان خاص فيضعه على كفة، ويضع في الكفة الثانية ريشة، تمثل الصدق فإن رجحت موازينه كان ذلك دليلاً على صدق أقواله.

---

[1] -الأديان في تاريخ شعوب العالم ص/ ٣٢٤/

وإن كانت حسناته تفوق سيئاته، ينقله إلى النعيم الأبدي.

وإذا كان العكس، فإن له الجحيم، حيث الحيوانات المفترسة تنتظره.

٣- يوم البعث: حيث يبعث الناس أحياء مرة ثانية، ويسمح لروح الذي نجا من عقاب الآخرة بالتمتع بنور الشمس نهاراً ثم العودة ليلاً إلى العالم السفلي، حيث تكون الشمس قد وصلت إليه، وبذلك يحق للروح التمتع بالشمس ليلاً نهاراً، ضعف ما يتمتع به الأحياء.

٤-الدعوة إلى عبادة التوحيد «ثورة امحوتب الدينية»:

رغم تعدد الآلهة، كان الاتجاه نحو التوحيد، كان يسيطر على التفكير، لقد انتشر تقديس الشمس في فجر التاريخ والتي عرفت باسم (رع) من هيليوبوليس عاصمة الدولة إلى جميع المقاطعات، وعندما وصلت وامتدت الإمبراطورية المصرية حتى ليبيا وفلسطين بشخص فرعون كان لابد من ربط الآلهة المحلية بالإله الأكبر فرعون.

عبادة التوحيد هذه ظهرت في سوريا وبلاد مابين النهرين، ولقد كانت عملية التزاوج بين الفراعنة والأسر السورية نشطة، لما حكم الملك (امنحوتب الرابع)، حيث كانت أمه وزوجته من سوريا، تؤمنان بوجود إله واحد أحد، قادر خالق لجميع المخلوقات، وطلب إلى رعيته عبادة إله واحد جديد سماه «آتون»، وأعلن إنه إله واحد لاشريك له، خلق الكون، ووهب كل من فيه الحياة، ورمز إليه بقرص شمس، ترسل أشعتها على أهل الأرض، تحمل إليهم النور والحياة بواسطة يد صغيرة، تنتهي بها الأشعة.

لقد نقل امنحوتب العاصمة من طيبة إلى مدينة جديدة سماها اخناتون، وأعلن حرباً على عبادة الإله آتون، فقاومه كهنة آمون، وتمكنوا بعد وفاته من القضاء على عبادة آتون، والعودة إلى آمون، وتحويل أسم خلفه الملك توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون.

الملك امنحوتب وضع نشيداً هو من أروع القطع الشعرية الدينية والفلسفية، يشرح تفاصيل العقيدة الجديدة وفيها يقول:

ياآتون الحي، يامبدئ الحياة، أنت تطلع ببهاء في أفق السماء. أنت جميل، وعظيم، متلألئ في السموات العليا.

تسطع أشعتك على الأرض، وعلى جميع المخلوقات.

أنت بعيد عن الأرض، ولكنك على اتصال بها، بأشعتك.

أنت عالٍ، ولكن آثارك واضحة في ضوء النهار.

وعندما تقترب من الأفق الغربي تصبح الأرض مظلمة، كما لو حل بها الموت وعندما يصبح الصباح، وتشرق أنت في الأفق، تطرد الظلام، وتبزغ أشعتك، فعندها يشمل الفرح قطري مصر.

أيها الخالق لبذرة الحياة، أنت الذي يجعل من النطفة إنساناً، أنت واهب الحياة للجنين في رحم أمه، أنت قدمت الحياة للفرخ في البيضة.

ما أكثر مخلوقاتك التي نجهلها، أنت الإله الأوحد، لاشريك لك في العالم أنت خلقت الدنيا، بمشيئتك عندما كنت وحيداً في هذا الكون.

أنت مبدع الجمال من نفسك، فالمدن والبلاد كلها عيون تراك فوقها مشرقاً.

أنت في قلبي، أنت الذي صنعت الدنيا بيديك وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم.

أنت الموجود، وأنت سبب الحياة، أنت الذي خلقت الأرض وخلقت الناس[1].

لقد كان لآتون خصائص منفردة، لم يشركه فيها إله آخر من آلهة الأمم القريبة إلى مصر.

وهذا هو المهم في نشوء الديانات، وليس المهم مجرد التشابه في مخارج الحروف، فليس ادونيس عند اليونانن كأدوناي عند العبريين، وليس هذا، ولاذاك، كآتوم في معبد عين شمس، أو غيره من المعابد المصرية، وليس هؤلاء جميعاً كالإله آتون الذي دعا إليه اخناتون، فلا وجود لآتون بهذه الخصائص لو لم تسبقه. التمهيدات القديمة التي مرت بعبادة آتوم في مصر، ومنها اتساع الدولة، وإيمان المصريين بصفات (رع) وآمون وحاجة الزمن إلى فهم جديد لصفات الكمال في الإله، وقد كان عرب الجاهلية مثلاً يعرفون اسم الله، وكان الله الذي وصفوه ولله الذي وصفه الإسلام، لايتشابهان بغير الحروف، وبينهما من الفارق أبعد الأرباب.

ولقد تناول العالم فرويد، مسألة المقابلة بين عقائد، اخناتون والعقائد العبرية، فألف آخر كتبه في موضوع هذه المقابلة وسماه «موسى والوحدانية»،وانتهى في مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لديه وهو: أن موسى عليه السلام، تربى في مصر في كنف الوحدانية، ونشأ في أعقاب المعركة

[1] -الإنسان العربي والحضارة - أنور الرفاعي / ٥٨/

بين آتون وآمون، واستعد للنبوة في هذه البيئة الموحدة، فعّلم بني اسرائيل كيف يوحدون الله، ويعظمون صفاته، وكان خروج بني اسرائيل فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، أي في الجيل التالي لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية، واسترسل فرويد في تقديراته - وهو من بني اسرائيل - حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصري وليس من اللاويين كما جاء في العهد القديم[١].

[١] - الله - لعباس العقاد - ص/ ٧٢-٧٣/

الديانات الهندية القديمة

الديانات الهندية ترجع إلى أزمنة أقدم من العصر الذي دونت فيه اسفارها المعروفة، ويختلف المؤرخون المختصون بالهند في العصر الذي تم فيه هذا التدوين .

فمنهم من يرده إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد[1] .

ومن المتفق أن الديانات الهندية القديمة، مزيج من شعائر الهنود الأُصلاء، وشعائر القبائل الآرية التي أغارت على الهند قبل الميلاد بعدة قرون، حيث كانت هذه القبائل تقيم على البقاع الوسطى بين الهند ووادي النهرين، كما يعتقد فريق من المؤرخين، أن الديانة الهندية القديمة لاتخلو من قبس منقول إليها من البابلية والمصرية، ولقد أشتملت الديانة الهندية القديمة على أنواع شتى من الآلهة، ففيها آلهة تمثل قوى الطبيعة، فيذكرون المطر ويشتقون منه اسم «الممطر» فهو إله الغيث، ومن هنا اسم «اندرا» إله السحاب المشتق من كلمة «أندو» بمعنى المطر، أو السحاب.

---

[1] -الله – عباس العقاد – ص/ ٧٥/

كذلك يذكرون إله النار، وإله النور، وإله الريح، وإله البحار، ويجمعونها في ديانة شمسية، تلتقي بأنواع شتى من الديانات. وأقدم معاني الإله عندهم معنى «المعطى» بمعنى «أبي العطاء» أو الأب المعطي للجميع.

واشتملت البرهمية القديمة على عبادة الأسلاف، كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية، فتقديس الملك عندهم، إنما هو تقليد موروث، ثم تحول إلى تقديس الرئيس الأكبر في الدولة، بعد أن تحولت القبيلة إلى الأمة.

ومن خلال المقارنة بين الديانة المصرية القديمة والهندية القديمة نلاحظ التشابه في أكثر من صيغة واحدة، من صيغها العديدة، فالحياة خرجت من بيضة «ذهبية» كانت تطفو على الماء في العماء، والإله الأكبر كان ذكراً، وأنثى، فهو الأب والأم للأحياء كما جاء في «رع» في بعض الأساطير المصرية وبناء العالم من صنع بنّاء ماهر في أساطير مصر والهند على السواء، وتتفق مصر والهند وبابل على أن الإله الأكبر، قد خلق الأرض بكلمة ساحرة.

وتعززت في الهند عبادة «الطواطم» بعقيدتهم في وحدة الوجود، وتناسخ الأرواح، كما تعزّزت بعقيدة الحلول، فعبدوا الحيوان على اعتباره جداً حقيقياً أو رمزياً للأسرة ثم القبيلة، ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود، أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه.

وآمنوا بتناسخ الأرواح، فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً، أو صديقاً عائداً إلى الحياة في محنة التفكير والتطهير، فعاشت عندهم الطوطمية في أرقى العصور، كما عاشت في العصور الهمجية لهذا الأمتزاج بين الاعتقاد

الحديث والاعتقاد القديم، لكنهم خلصوا كغيرهم إلى الإيمان بالإله الواحـــد، وأن اختلفوا في المنهج الذي سلكوه.

لقد أبطلوا جميع المظاهر، فنسبوا إليها التعدد والاختلاف، لأنهـا تتكـرر وتزول، وتستر من ورائها الحقيقة الأبدية التي لاتتكرر ولا تزول، وتلك هـي حقيقة القضاء والقدر.

وهنا ذهب حكماؤهم إلى مذهبين غير متفقين، فبعضـهم تمثـل تلـك الحقيقة إلها واحداً، قريباً من الإله الواحد في أكثر من ديانات التوحيد، ويقـول فاكس موللر «أيا كان العصر الذي تم فيه جمع الأناشيد المسطورة في الرجفيدا، فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذي هو لاذكر ولاأنثى، ولاتحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية»[1]

أما الفريق الثاني، فالحقيقة الأبدية عنده معنى، ليس له قوام من «الـذات» الواعية وإنما هو قانون يقضي بتلازم الآثار والمؤثرات، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالأديان الكتابية.

وحسب نظرة البراهمة، أن القضاء يسري على الآلهة كما يسـري علـى البشر، ويتغلغل في طباع الخالقين كما يتغلغل في طبائع المخلوقات وحكمـه لامرد له، هو حكم التغيير الدائم والفناء، وحكم الإعادة والإبداء.

لقد عظّمت البراهمية الأكوان المادية، من حيث السعة أو القدم، أو البقاء، فقد آمنت البراهمية أن عمر الأكوان أربعة أعمار، تساوي اثني عشر ألف سـنة إلهية، وأربعة ملايين وثلاث مائة وعشرين ألف سنة شمسية.

---

[1] -الله – عباس محمود العقاد ص/ ٧٧-٧٨/

والقانون الأبدي، يقلب هذه الأدوار، فيبدئها ويحفظها ويغنيها، ثم يختم هذا النهار بليل من ليالي الهجوع، ثم يعود فيطلع النهار كرة أخرى دواليك إلى غير انتهاء، لأنه لا انتهاء للزمان، ثم يتضاءل الإنسان الفاني كلما تعاظم هذا الغناء الخالد، أو هذا الخلود الذي يتجدد بالغناء، وعلى هذا الأساس قامت البوذية التي بشر بها «البوذ اجوتاما» قبل الميلاد المسيحي بحوالي خمسة قرون.

قبل جوتاما كان نساك الهنود يتغنون بالنشيد المرهوب ومضمونه الذي ترجمه ماكس موللر، عما كان قبل أن يكان أو يكون:[1]

«حين ذاك لم يكن ما وجد، أو مالم يوجد، لم يكن ما تثبته ولا ما تنفيه».

«لاأجواء، ولاسماء، وراء الأجواء».

«لم يكن موت، فلم يكن خلود».

«لم يكن مايموت، فلم يكن ماليس يموت».

«ولم يكن ثمة نهار ولاليل، ولم يكن إلا «الأحد» يتنفس حيث لاأنفاس سواه».

«وكان البدء في ظلام، عليم بلا ضياء».

«ومن البذرة في الشجرة قام «الأحد» بحرارة الحياة».

وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لباب العقل السرمدي، وناجى الشعراء قلوبهم، فتبينوا بالحكة ما هو مما ليس هو، وقد نفذ شعاع القلب خلال ماهنالك، فماذا نظروا فوق الأحد وماذا نظروا دونه ؟ كل ما هنالك حملة

---

[1] -الله – عباس العقاد ص/ ٧٩/

لبذور.....قوى . قوة من أدنى، ومشيئة من أعلى، ولاأحد يدري ولامن يعلم من أين جاء ماجاء، فإنما جاءت الأرباب بعد ذلك.

فمن يعلم ما جرى ؟ أهو الذي حدثت منه الخليقة ؟ لعلّ الذي يعرفه «أحدٌ» واحد في أعلى عليين، ولعله لايدري كذلك.

آمن البرهميون بالدورة في وجود الكون والدورة في وجود الإنسان، فالكون يتجدد حلقة بعد حلقة، والإنسان ينتقل في جسد بعد جسد،

كما أن البوذية قامت على أساس البرهمية في كل عقيدة من عقائد الأصول، لكنها – البوذية- تميزت بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان، وخلاصة الفلسفة الدينية التي أتى بها البوذا جوتاما في المبادىء الأربعة التالية:

١- هناك عذاب وشقاء .

٢- هناك سبب للعذاب والشقاء.

٣- إن هذا السبب قابل للزوال.

٤- إن وسيلة الأنتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار.

وسبب الشقاء هو الجهل، الذي جعلنا نتعلق بالأوهام، وننسى لباب الأمور، أو نتعلق بالعرض، ونعرض عن الجوهر.

والعرض هو كل ما يزول ويتغير وهو من شر وفساد، وكل ما نحسه هو عرض تشمله لعنة الزوال، ثم يقول بوذا جوتاما: «إن الناس يؤمنون بالثنائية، فيؤمنون بأن الشيء، إما كائن أو غير كائن، ولكن الناظر إلى الأمور بعين الصدق يعلم أن الرأيين طرفان متطرفان، وأن الحقيقة وسط بين الطرفين»

وعلى هذا ينكر بوذا وحدة «الشخصية الإنسانية» لأنها لاتتجاوز أن تكون تلاحقاً مستمرا للأحاسيس.

وإذا كان الشقاء في التطرف بالحس إلى النقيضين، فالخلاص من الشقاء لايأتي بغير الاعتدال بين كل طرفين، وبهذا تبعد عنا غشاوة الخداع الذي يتراءى على ظاهرة الأشياء للنفاذ إلى ماورائها من سر الوجود.

فلا استغراق في أرضاء الحس، ولااستغراق في قمعه وتجريده، بل توسط بين الغايتين في أمور الحياة الثمانية، وهي، الفهم والعزم والكلام والسلوك، والمعيشة والعمل، والتأمل والفرح.

فالفهم: طرفاه التصديق بكل ما يقال، وانكار كل مايقال، والوسط بينهما، التميز بين الباقي والزائل والظاهر والباطن، والثابت والذي ليس له ثبوت.

والعزم طرفاه: التهافت والإهمال، والوسط بينهما، إرادة الحكمة .

والكلام: منه المهجور، ومنه المطروق، والوسط بينهما، قول الصدق وصون اللسان، عن العيب والنميمة والمحال .

والسلوك: طرفاه المحاباة مع الغرض، والإجحاف مع الغرض، والوسط قوام بين الغرضين، لاينقاد لهذا ولالذاك، والمعيشة الصالحة قوامها أن يتخير الإنسان رزقاً حلالاً، يتورع فيه عن التكسب بما يضر الآخرين.

والعمل الصالح أن يعرف ما يبتغيه، ويقيس طاقته على مراده ويلتزم في كل مايريد جادة الرشد والحكمة والإنصاف.

والتأمل الصالح سلام العقل وصفاء البصيرة ونبذ الوهم، والعكوف على الحق البريء من النزعات.

والفرح الصادق: هو فرح الرضوان الذي يتاح للإنسان في هذه الحياة، فيبلغ به ملكوت «النرفانا» الأرضية النرفانا في انتظار الصمدية، وهي السكينة أو الفناء، وبنها وبين العدم فرق كبير، لأنها هي وجود يفنى في وجود، حيث يفسرها بعض العصريين من اذكياء البوذيين بفناء ألوان الطيف في البياض الناصع الذي ليس له لون، وهو ملتقى جميع الألوان بهذه الآداب الثمانية، ينجو الإنسان من رباط ذلك الدولاب الدائر بالولادة والموت، والتجدد في حياة بعد حياة، وجثمان بعد جثمان، فيدخل في «النرفانا» ولايولد بعد ذلك ولايموت. وموضع التناقض في هذه الفلسفة، أنها تنكر «الشخصية الإنسانية» ولاتعترف بالذات أو بالروح وهي مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح، وثبوت شيء في الإنسان يبقى على التنقل بين الأجساد والدورات، وأنها تؤمن بالكل «المطلق» الصمدي الوجود، ثم تنفى عنه الذات كما تنفيها عن الإنسان مع أن الكل بغير ذات لايكون كلاً، بمعنى من معاني الكلية، ولكنه شتات من أجزاء متفرقات.

لقد رفع الأوربيون هذه الفلسفة البوذية، وزعموا أنها «جرأة العقل الكبرى» في مواجهة المشكلة الكونية، إنها جرأة حسية، وما البوذية كلها إلا تململاً من وطأة الحس والجسد، ولاسعادتها القصوى إلا ضيقاً بالحس، وهرباً منه إلى الفناء أو «اللاوعي» على أحسن تقدير، والمحسوس عندها شامل للمعقول، والكائن والآلهة عندها تأتي في المرتبة التالية بعد مرتبة الآكوان، وما

ارتفعت الأكوان عندها إلى هذه المرتبة إلا لأنها هي المحسوس، وهي أول مايفاجئنا قبل أن نفكر، وقبل أن نتأمل، وقبل أن، ندين باعتقاد.

البوذية مدت نطاق الأكوان في الزمان والفضاء، حيث قصر عنه المتدينون الأقدمون، كما أنها نفذت وراء الظواهر، فتجاوزتها إلى ظواهر أعم منها وأبقى.

فالبرهميون يجزمون بأن الشمس لاتغيب عن الفضاء حين تغرب في المساء، بينما كان الأقدمون يحسبونها تهلك في مغربها أو أنها تحتجب وراء الجبال، أو توارى بما تخيلوه من ضروب الحجاب.

البوذيون المعاصرون يجردون «الكل» عن الذات، أو يجردون الإله الأعظم عن الذات، ويسوغون ذلك بأن الذات شبهة إنسانية نشأت من تخيل الإنسان، كل موجود على مثاله ومنحاه.

ولكن تخيل الإنسان، طبقة أعلى من تخيل الإله مجموعة من هذه الأكوان البكماء، وكل ما يقولونه عن ربوات الفراسخ التي يمتد إليها الفضاء، ولاتزيد على أن يكون فضاء في كل مكان .

وذرة واعية في نواة تعيش الألوف منها على سن الإبرة، هي أوسع امتداداً في آفاق الوجود من أوسع فضاء، لاوعي فيه.

ومن راعه امتداد الفضاء، و لم يرعه امتداد «الوعي» فهو يقيس العالم بالأشبار والأمتار، ولايقيسه بعمق الحياة،وكنه الوجود الذي يعلم أنه وجود، وما من فارق كبير بين وجود لاوعي له، وبين معدوم [1]

[1] - الله - عباس محمود العقاد ص / ٨٤/

وخلاصة الديانة الهندية بالآتي:

١- عبادة قوى الطبيعة، والطواطم .

٢- آمن الهنود القدماء بتناسخ الأرواح، كما عبدوا الحيوان .

٣- تطورت العبادات، وآمنوا بالله الذي يتجلى في كل شيء.

٤- آمن البرهميون بتجديد الكون، حلقة بعد حلقة، وآمنوا بانتقال الإنسان ينتقل في جسد بعد جسد.

٥- خلاصة البوذية: هناك سبب للعذاب والشقاء، وهذا السبب، قابل للزوال، والوسيلة للانتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار .

٦- البوذية مدت نطاق الأكوان في الزمان والفضاء، حيث قصر عنه المتدينون الأقدمون كما أنها نفذت وراء الظواهر، فتجاوزتها إلى ظواهر أعم منها وأبقى.

المعتقدات الدينية في الصين

لقد اختارت الصين جميع أنواع العبادات، من أدناها إلى أرقاها، وهي لاتحسب من أمم الرسالات، كمصر وبابل وفارس وبلاد العرب، لأنها أخذت من الخارج قديماً وحديثاً، و لم تعط أمة عقيدتها باستثناء اليابان التي أخذت عنها نحلة كنفشيوس.

الصينيون لايخوضون كثيراً في مباحث ما وراء الطبيعة، والتدين بينهم ضرباً من أصول المعاملة، وأدب البيت والحضارة.

يعبدون الأسلاف والأبطال، والصيني لايقدم قرباناً هو أغلى في قيمته، وأحب إلى نفسه من قربانه إلى روح سلفه المعبود.

وفكرة الخير والشر كانت ظاهرة وواضحة، فما يرضي الأسلاف، فهو خير وما أسخطهم فهو شر، وقد يختارون فرداً من أفراد الأسرة ينوب عن جده، فيطعمونه ويكسونه ويزدلفون إليه ويحسبون أن روح الجد هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد.

عناصر الطبيعة تتمشى عبادتها جنباً إلى جنب مع عبادة الأسلاف، فالسماء والشمس والقمر والكواكب والسحب والرياح آلهة معبودة، أكبرها إله السماء «شانج تي» ويليه إله الشمس وبقية الأجرام السماوية.

إله السماء هو «الإله» الذي يدير الأمور ويصرف الأكوان، ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذي لامحيد عنه.

ويداول تركيب الوجود من عنصرين هما «ين» عنصر السكون،و «يانج»عنصر الحركة، ويفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم، وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب، فهما يقابلان عنصري الخير والشر، وإلهي النور والظلام، في الأديان الثنائية،

ولقد أمتزجت في القرن العاشر عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية حين تسمى عاهل الصين بإسم«إبن السماء» ويقال أنه استعار الفكرة من كاهن يابابي أراد أن يزدلف إليه فعلمه مراسم التأليه في بلاده فنقلها إلى بلاط الصين.

الفيلسوف الصيني «شوهسي» أنشأ بوذية صينية توافق مذهب بوذا في أمور وتخالفه في أمور، فدعا إلى دين لاإله فيه ولاخلود للروح، ووضع «لي» موضع «كارما» الهندية أو القانون أو القضاء والقدر، وسمى دولاب الزمن «تايشي» لأنه هو المحرك لجميع الكائنات، وجعل القانون والدولاب والمادة قوام العالم ظاهرة وخافية، فالمادة تحد من القانون، والقانون خالد، لاوعي له ولايسمع ولايجيب، وإنما ينشأ الوعي أو الإدراك في الإنسان، من قدح القانون للمادة، كما ينقدح الحجر من الزناد، فيخرج الشرر، ثم ينطفئ فيموت، وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متى نضجت، كما تنضج الثمرة في أجلها المعلوم.

وقد يبطئ النضج فيطول بقاء الروح، فهي إذن طيف، أو شبح، كأنها الثمرة في حالة العفن والإهمال.

ليس لأهل الصين رسل وانبياء، بل لهم معلمون ومربون، فأسم، كنفشيوس أشهر هؤلاء المعلمين، وهم يدعون إلى الحلم والصبر والبر بالوالدين والعطف على

الآخرين والغرباء، والمبدأ العام الذي سار عليه هؤلاء المعلمون، مقابلة السيئة بالعدل، والإحسان بالإحسان.

أقيم لكنفشيوس عندما توفي عام /٤٧٨/ق.م الهياكل وعبدوه في القرن الثاني قبل الميلاد، وأوشكت الحكومة في عهد أسرة «هان» أن تتخذ عبادته، عبادة رسمية،ولقد كانت هياكله مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس، كما يؤمونها لإداء الصلاة. في عام /١٩٠٦/ خصوه بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر، إله السماء، ومن لم يؤمن من الصينيين الآن بربوبيته، فلة في نفسه توقير، لايقل عن التأليه، ولقد جعلوا، يوم ميلاده في السابع والعشرين من آب عيداً قومياً يحجون فيه إلى مسقط رأسه وينوب عن الدولة موظف كبير في محفل الصلاة أمام محرابه.

محور شعار الدين في الصين، الحلم والتحذير من العنف والغضب والإفراط والإسراف، وليس في تدين الصين مغالات ولاحماسة ولا غيره ولاتعصب، بل ليس شيء من ذلك في معرض من معارض الروح القومي التي تعبر عنها الثقافة أو الفن أو الحكمة أو قواعد الأخلاق.

والصينيون متفائلون، وغالب الرأي بين حكمائهم، أن، الإنسان طيب بالفطرة.

ولاتأتي الحماسة الدينية إلا حين يمتحن الإنسان بالشدة البالغة والحيرة، فيندفع إلى غاية الإصرار، وينقلب من ضميره إلى أعمق الأغوار.

ولاشك أن شعور النفس، «بالقدرة الإلهية» عند الإنسان الصيني يتوقف عند هذه الحالات التي يمتحن بها، والتي تتوقف عندها قدرته.

البيئة الصينية، لم تساعد على خلق العقد النفسية، ولكنها واجهتهم بتقلبات الطبيعة، والتي روضتها الشعوب بالسحر والكهانه، فتغلب نصيب الإيمان بالسحر

على نصيب الإيمان بالدين، وذاع عن أهل الصين من ثم أنهم أقدر أمة على تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاد.

خلاصة المعتقدات الصينية تتجلى بالآتي:

١- اختارت الصين جميع أنواع العبادات من أدناها إلى أرقاها.

٢- التدين في الصين ضرب من أصول المعاملة، وأدب البيت والحضارة.

٣- عبد الصينيون السماء والشمس والقمر والكواكب والرياح والسحب.

٤- إله السماء هو الإله الذي يدبر الأمور ويصرف الأكوان، ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذي لامحيد عنه.

٥- الوجود يتألف من عنصرين، السكون والحركة، والسكون هو الراحة والنعيم، والحركة الشقاء والعذاب، فهما يقابلان عنصري الخير والشر، وإلهي النور والظلام في الأديان الثنائية.

٦- كنفشيوس دعا إلى الحلم والصبر والبر بالوالدين والعطف على الآخرين والغرباء، والمبدأ العام لهذا التوجه، مقابلة الإحسان بالإحسان والسيئة بالعدل.

المعتقدات الدينية في اليابان

لقد تشابهت عقائد اليابان في الأصول. كموقف الصين على الإجمال .

فقد عبدوا الأرواح والأسلاف وعناصر الطبيعة، واستعاروا البوذية والمسيحية والإسلام على تفاوت في عدد الأتباع من كل دين، ومزجوا ديانة الشمس بديانة الأسلاف.

أفرط اليابانيون في تأليه صاحب العرش، وأعتدل أهل الصين في تقديسه، كاعتدالهم في جميع الشؤون.

والسمة الخصوصية لأهل اليابان في عباداتهم، أنهم اختاروا «ربة»أنثى لعبادة السلف الأعلى، وتلك الربة هي «أميتراسوا- اموكامى» التي لاتزال معبودة إلى اليوم.

ولايعتقد أهل اليابان، بأن هذه الربة خلقت الكون، أو خلقت الإنسان، لأن اعتقادهم أن عهدها قد سبقه عهود، مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب، وهذه الأرباب هي بمثابة الأرواح والملائكة والجن، والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية.

أما الخلق فمنسوب عندهم إلى إله السماء «أزاناجي- توميكوتو» وزوجته وأخته إله الأرض «أزانامي- توميكوتو» فولدا جزر اليابان والقحاها ببذور الآلهة، وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة هذه الآلهة.

وفي إحدى الروايات الأسطورية أن ربة الأرض أحترقت وهي تصنع إله النار، فجرد رب السماء سيفه وضرب إله النار فانبعث من وميض سيفه ومن ضرباته رهط من أرباب الزوابع والبروق والرعود، ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربّها وخروجها من هاوية الظلام، لتلد الماء والطمي وعناصر الزرع والحياة.

وفي رواية أخرى، ينسبون الخلق إلى «ازاناجي» وحده وهو يبحث عن رفيقة حياة.... فمن عينه اليسرى خلقت الشمس، ومن عينه اليمنى خلق القمر، ومن عطسته خلق «سوسا-نو-وو» رب الرياح والأمطار، ولكنه أعجب من بين أبنائه بالشمس، دون شقيقيها، فخلع عليها عقداً يتلألأ بالجواهر، وبوّأها أرفع عرش في السماء.

فالديانة اليابانية الأصلية، ديانة شمسية سلفية، جمعت معنى التوحيد أولاً، في إله السماء، حيث تصوروه أباً للخليقة بمفرده، أو بمشاركة زوجه،ثم جمعتها في الربة الواحدة، على اعتبارها ربة مختارة بين أرباب.[1]

ويمكن أن نلخص عبادات اليابانيين بالآتي:

١- تشابهت عقائد اليابانيين في الأصول، كموقف الصين على الأجمال.

[1] -الله - عباس محمود العقاد ص/ ٨٩/

٢- عبدوا الأرواح والأسلاف وعناصر الطبيعة، واستعاروا البوذية والمسيحية والإسلام.

٣- أفرط اليابانيون في تأليه صاحب العرش.

٤- أختار اليابانيون «ربة» أنثى لعبادة السلف، ولاتزال حتى اليوم .

٥- الديانة اليابانية ديانة شمسية سلفية، جمعت معنى التوحيد أولاً في إله السماء.

المعتقدات الدينية في بلاد فارس

تاريخ الديانة الفارسية القديمة أهم التواريخ الدينية بين الأمـــم الآســيوية وذلك للعلاقة المتواشجة بينه وبين الدينـــات الهنديـــة والطورانيـــة والبابليـــة واليونانية، وارتباطه بالسابق واللاحق، واقتباس الديانة الفارسية مـــن غيرهـــا، واقتباس غيرها منها، كما أن تقدم الفكرة الإلهية على يد زرادشت في بــــلاد فارس صاحب الشريعة القومية، أضاف إلى تاريخ الفارسية أهمية كبرى بـــين الديانات السابقة واللاحقة في العالم.

ومن المعلوم والمعروف تاريخاً أن الفرس الأقدمون من الســـلالة الهنديـــة الجرمانية، وموقع بلادهم قريب من دولة بابل، قرية من أقاليم الطورانين، كمـــا أن حضارة فارس تلاقت مع حضارة مصر في السلم والحرب غير مرة، كمـــا كان لأبناء فلسطين وشعوب العرب علاقات قديمة بالدولة الفارســـية تـــارة، والبابلية تارة أخرى. فاتصل بذلك تاريخ المجوس بتاريخ الديانـــة الســـماوية اليهودية والمسيحية والاسلامية .

قدماء الفرس يلتقون مع الهنود في عبادة «مترا» إله النور، وتسمية الإلـــه بالـــ«أسورا» أو إله الـــ «أهورا» وأن اختلفوا في اطلاقة على عناصر الخـــير

والشر، فجعله الفرس من أرباب الخير والصلاح، وجعله الهند من أرباب الشر والفساد.

والبابليون عرفوا عبادة «مترا» في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وهو من الآلهة التي تحارب قوى الظلام.

واستعار الفرس من البابليين، كما أعاروهم، فأخذوا منهم سنة التسبيع في عدد الآلهة.

كما أخذ الفرس من عقائد الطورانيين لأن«زرادشت» عاش بينهم وبشرهم بدينه، فاضطر إلى مجاراتهم في عباداتهم ليجاروه في عباداته.

ويعتقد المجوس في أساطيرهم أن «زروان» هو أبو الإلهين، إله النور وإله الظلام، ولعل «زروان» هذا هو صنو لإله البابليين «نون»أو القدر الذي يتسلط على الآلهة، كما يتسلط على المخلوقات.

كما أن المجوس بالعالم الآخر، كما آمن به المصريون، وآمنوا أيضاً بالثواب والعقاب في الدار الآخرة، كما آمنوا بقيام الموتى ونهاية العالم، وبعث الأرواح للحساب يوم القيامة، بهذا جمع المجوس بين عقيدة الهند في نهاية العالم وعقيدة المصريين في محاسبة الروح، ووزن أعمالها في موقف الجزاء.

اليهود لم يتكلموا عن «الشيطان» قبل الإقامة بين النهرين، ولقد تكلموا عنه بعد أن شبهوه «بأهرمان»الذي يمثل الشر والفساد عند المجوس.

وفي الكتب المسيحية أن حكماء المجوس شهدوا مولد المسيح، فأهتدوا إليه بنجم السماء. ولقد ذكر افلاطون زرادشت في كتاب «السيبادس» فسماه

زرادشت بن أورمزد، وقال المؤرخ بليني في تاريخه الطبيعي «إنه المولود الـــذي ضحك يوم ولادته»[1].

وقال: ديو كريسستوم أنه لا الشاعر هوميروس ولاالشاعر هزيودبلغا مبلــغ زرادشت؟.

– تؤكد المصادر أنه لايعرف له تاريخ مفصل، فالمراجع اليونانية تــرده إلى ماقبل الاسكندر بنحو مائتين وسبعين عاماً، فهو على هذا قـــد ولـــد ســـنة /٦٦٠/قبل الميلاد، وهو أصح التقديرات.

ولقد رجح كاسار تلكي وجاكسون، إنه ولد سنة /٦٦٠/ ومات ســـنة /٥٨٣/ ق.م.

ويقول: الشهرستاني،إن أباه من أذربيجان وأمه من الري.

ويتفق المؤرخون على أنه ولد في الناحية الغربية الشـــمالية مـــن البـــلاد الفارسية على شاطئ نهر «أراس».

وخلاصة ماجاء به زرادشت من جديد في الديانة مايلي:

١–أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله.

٢– أنزل بإله الشر إلى مادون مترلة الإله الأعلى.

٣–بشر بالثواب،وانذر بالعقاب.

٤– قال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد.

٥– حاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع صفات التتريه.

---

[1] –الله –عباس محمود العقاد ص/ ٩٢/

٦- الخير غالب دائم، والشر مغلوب.

ولكن زرادشت لم يختم صراع الأخوين هرمز الذي يمثل الخير والرحمة، - وأهرمان، يمثل الشر والفساد - بل أذن بتحول النصر من صف إلى صف وتراجع الشر والظلام من مملكة الخير والنور.

وفي «الزندفستا» يقول زرادشت: أنه سأل هرمز «ياهرمز الرحيم صانع العالم المشهود، يأأيها القدس الأقدس: أي شيء هو أقوى القوى في عالم الملكوت.

فطلب منه زرادشت أن يعلمه هذا الأسم فقال له أنه «هو السر المسؤول» وأما الأسماء الأخرى، فأولها هو«واهب الأنعام، وثانيها هو المكين، وثالثها هو الكامل، ورابعها هو القدس،وخامسها هو الشريف، والسادس الحكمة، والسابع هو الحكيم، والثامن هو الخير والتاسع هو الخبير، والاسم العاشر هو الغنيِّ، والاسم الحادي عشر الغنى، والاسم الثاني عشر هو السيد، والاسم الثالث عشر المنعم، والاسم الرابع عشر هو الطبيب، والاسم الخامس عشر هو القهار، والاسم السادس عشر هو محق الحق والاسم السابع عشر هو الخلاق، والاسم العشرون هو «مزدا» أو العليم بكل شيء[1] ز

كما أن ازرادشت حرم عبادة الأصنام والأوثان، وقدس النار لكونها أصفى وأطهر العناصر المخلوقة، لاعلى أنها هي الخلاق المعبود.

[1] - عباس محمود العقاد كتاب الله ص/ ٩٥/

يقول زرادشت: «أنا وحدي صفيك الأمين، وكل من عداي فهو لي عدو مبين» زاعماً أن الله اصطفاه للتبشير بالدين الصحيح والقضاء على عبادة الأوثان.

رواية الخليقة في مذهب زرادشت: أن هرمز خلق الدنيا في ستة أدوار: فبدأ بخلق السماء، ثم خلق الماء، ثم خلق الأرض، ثم خلق الحيوان، ثم خلق النبات، ثم خلق الإنسان، وأصل الإنسان، رجل يسمى «كيومرث» قتل في فتنة الخير والشر فنبت من دمه ذكر يسمى «ميشة» وأنثى تسمى ميشانة، فتزوجا وتناسلا، وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين، والمجوس يفرقون بين إله الظلام وإله النور، فالأحياء النافعة من خلق «اهرمن» كالحية وما شابهها من الحشرات الهوام.

الناس خيرهم وشرهم في سجل محفوظ، حين توزن أعمالهم بعد موتهم فإن رجحت أعمال الخير صعد إلى السماء، ومن رجحت عنده أعمال الشر هبط إلى الهاوية، ومن تعادلت عنده الكفتان ذهب إلى مكان لاعذاب فيه ولانعيم، إلى أن تقوم القيامة، ويتطهر العالم كله بالنار المقدسة، فيترقون جميعاً إلى حضرة هرمز في نعيم مقيم.

لقد شاعت مذاهب أخرى وخاصة بعد شيوع المسيحية بعدة قرون أهمها مذهب مترا، ومذهب ماني المعروف بالمانوية.

مذهب مترا وأهم ماجا فيه: انتشر هذا المذهب بعد حملات «بومبي» وتدفق الآسيويين من جنوده إلى حواضر سورية وآسيا الصغرى، وأيده القياصرة، لأنه كان يرفع سلطان الملوك إلى عرش السماء، ولقد شاع المذهب

في القرن الثاني قبل الميلاد، وقصر اتباعه على الذكور دون الإناث، وجعل لهم درجات مسبقاً يرتقونها إلى مقام العارفين، رمزاً إلى الدرجات التي تصعد عليها الروح بعد الموت من سماء حتى تستقر في نهاية المرتقى عند حظيرة الأبرار .

وكلما أنتقل المرء من درجة إلى درجة يتناول الحيز المقدس ثم يسترقى في معرفة السر الأعظم، إلى أن يعرف كلمة الله الخالقة في مقام العارفين الواصلين.

وأصل مترا قديم في الديانات الآرية يدين به الهنود، كما يدين به الفارسيون واتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس، أو يوم الأحد ويحتفلون بمولده في الخامس والعشرين من ديسمبر، لأنه موعد انتقال الشمس وتطاول ساعات النهار، ويقيمون له عيداً سنوياً في السادس عشر من الشهر السابع في تقويم الفرس القديم، وكان المسيحيون الأولون يقابلون ذلك- بعد ظهور المسيحية وانتشارها - بتمجيد السيد المسيح في الأيام التي كان عباد مترا ينصرفون فيها إلى تمجيد هذا الإله الشمسي القديم[1] .

المانوية: هي مذهب ماني بن فاتك الذي يرجح أنه ولد في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد ومذهبه يخالف مذاهب المجوس في زعمه أن آدم من خلق الشيطان لامن خلق الله، يقول الشهر ستاني عن صاحب هذا المذهب:«أنه أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية ويقول بنبوة السيد المسيح عليه السلام ولايقول بنبوة موسى عليه السلام».

ويقول محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم:«إن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب

[1] -الله -عباس العقاد - ص/ ١٠٣-١٠٤/

من أصلين قديمين، أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا، وأنكـــر وجود شيء إلا من أصل قديم، وزعم أنهما لم يزالا،قويين حساسين سميعـــين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفي الحيز متحازيان تحازي الشخص والظل»

وذكر أمثلة من الأختلاف بين جوهر النور وجوهر الظلمة، قبيح نـاقص، لئيم، كدر خبيث، منتن الريح قبيح المنظر،

وأن أجناس النور خمسة أربعة منها أبدان والخامس روحـــها، فـالأبدان هي:النار والنور والريح والماء، وروحها النسيم، وأن أجناس الظلمة خمســـة، اربعة منها أبدان والخامس روحها، والأبدان هي الحريق والظلمـــة والســـموم والضباب، وروحها الدخان».

خلاصة الديانة الفارسية:

١- اقتبست الديانة الفارسية من الديانة الهندية والطورانيـــة، والبابليـة ةاليونانية السابقة، ومن اليهودية والمسيحية والأسلامية لاحقاً.

٢- مذهب زرادشت طور الفكرة الدينية في بلاد فارس.

٣- بعد شيوع المسيحية، شاعت مذاهب أخرى كمذهب مترا ومذهـــب ماني.

المعتقدات الدينية في بابل

الحضارة البابلية من أقدم الحضارات على سطح الكرة الأرضية، كما يروي التاريخ، وبالرغم من قدمها لم تؤد رسالة في تاريخ الوحدانية لكن بابل كانت مفتوحة الأبواب على الدوام لعقائد الفرس،

والهنود والمصريين والعبريين، ومن المؤكد أن الرسالة البابلية في الدين لم تتجاوز رسالة الديانة الشمسية السلفية.

والأرباب الأقدمون وغزواتهم، هي غزوات أبطال من الأسلاف، برزوا بملامح الآلهة، ثم تلبست سيرتهم بظواهر الكون العليا، فسكنوا في مساكن الأفلاك وحملت أسماءهم ولاتزال تحمل بقية منها إلى اليوم.

فمردوخ إله الحرب، هو كوكب المريخ وقد تغلب على ربة الأغوار «تيمات»المظلم، فأخذ زوجها وخلائفها الأحد عشر وسلسلهم اسارى في مملكته السماوية، فهم المنازل الإثنا عشر التي بقيت في علم الفلك إلى اليوم.

ولقد عرف إله النور الذي يسميه الساميون«شمس» ويسميه الشمريون «آنو»، والزهرة ربة الحب التي يسميها الساميون «عشتار» ويسميها الشمريون«ننسيانة»، ولقد ارتفعت الأرباب البابلية إلى أربعة آلاف، وقرنوا بها انداداً لها من الشياطين والعفاريت.

لم يعرف لهم إيمان بعالم آخر أو بيوم الحساب والجزاء.

فمن عمل فعلاً محرماً، أو قصر في الصلوات والقرابين، فالآلهة تجزيه على ذنبه، بمرض يصيبه لايشفى منه إلا بواسطة كاهن المعبد بعد التوبة والتكفير، وإذا لم يكن جزاؤه، مرضاً فخسارة مال أو بنين، أو ذوي القربى والأعزاء، وكل مصيبة من هذه المصائب تنبيه إلى ذنب مقترف، أو فريضة منسية، وحث على التذكر وطلب الغفران، وإذا عمت الذنوب، تعم العقاب حيث ترسل الآلهة طوفاناً، أو وباء، يأخذ البريء بذنب السيء.

«وتيمات» عندهم ربة الغمر والأغوار والظلمات، وربة الفوضى ويصورونها في إحدى اساطيرهم، كما يصورون البشر الأولين، فنصفها سمك ونصفها إنسان .

وقصص الخلق مناسبة عندهم لموقع البلاد البابلية، من خلال اشتغال أهلها برصد الكواكب ومراقبة الأنواء .

والطوفان المفصل في بعض القصص البابلية، هو الذي غمر مابين النهرين إلى الشمال، والجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح هو الجبل المعروف اليوم بجبل أرارات، ولم تشتمل قصص الطوفان في البلاد الأخرى على تفصيل كهذا التفصيل.

وقصة الخلق عندهم، أن الدنيا كانت قسمة بين تيمات ربة الأغمار أو الماء الاجاج وبين «إيا» إله الماء العذب وعنصر الخير في الوجود كما أن إله السماء «أنو»انهزم أمام جحافل تيمات، فلم ينتصر إلا بعد أن يرز من الماء بطل وليد: هو مردوخ رب الجنود وسيد الحروب، ثم شق مردوخ تيمات إلى

نصفين، صنع الأرض من إحداهما، ومن الآخر صنع الفضاء، ورفع إلى السماء ماشاء من الأرباب.

كتبت شروح هذه القصة بالخط المسماري وقد كشف عنها في أواخر القرن التاسع عشر، وهي مكتوبة على ألواح موجودة حالياً في المتحف البريطاني بلندن، وهي مقسومة إلى سبعة أقسام، كل قسم يتحدث عن يوم من أيام الخلق، آخرها اليوم الذي خلق فيها الإنسان.

وقد جاء في اللوح المخصص لقصة خلق الإنسان، أن مردوخ أفضى إلى «ايا» بأنه سيخلق الإنسان من دمه وعظمه، فأمر حاشيته أن تضرب عنقه- عنق الإله مردوخ ـ ففعلت ...

وسال الدم فنجم منه الإنسان، ويظهر أن ضرب عنق الإله لايقتله، ولايقضي عليه،لأن مردوخ كان يتصدر بروحه حشد الأرباب، التي اجتمعت في السماء، احتفالاً بخلق أبي البشر، وسمع منها نشيد الفرح والثناء.

خلاصة المعتقدات الدينية في بابل:

١- كانت بابل مفتوحة لعقائد الفرس والهنود والمصريين والعبرانيين.

٢- عبد البابليون الكواكب كالمريخ والشمس.

٣- أخذ عن البابليين المنازل الأثنا عشر التي لاتزال حتى الآن مدماك علم الفلك وذلك من خلال تغلب مردوخ على تيمات المظلمة وأسر زوجها وخلائفها الإحدى عشر.

المعتقدات الدينية عند اليونان

حفل التاريخ اليوناني بجميع أنواع العقائد البدائية من عبادة الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل، ومزجوا هذه العبادات بطلاسم السحر والشعوزة، واستمدوا من جزيرة «كريت» عبادة النيازك وحجارة الرواسب البركانية، فرمزوا بها إلى أرباب البراكين والعوالم السفلية، وكان من الواضح لما شاعت بين الأغريق عبادة «الأوليمب» أنها أرباب مستعارة من الأمم التي سبقتهم.

فالإله «زيوس» أكبر أرباب الأوليمب، هو الإله «ديوس» المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة، وأسمه متداول في العبادات الأوربية جميعاً .

والربة أرتميس – ومثلها الربة أفروديت أو فينوس – هي الربة عشتار اليمانية البابلية، ومنها كلمة- ستار- التي تدل على النجم في بعض اللغات الأروبية الحديثة، والربة «ديمتر» هي أزيس المصرية.

«وأودينيس» من «أدوناي» العبرية بمعنى السيد أو الإله.

ترقى اليونان في تصور صفات الأرباب، فعبدوها قبل المسيح ببضع مئات من السنين، وهي على أسوأ مثال من العيوب الإنسانية، وعبدوها بعد ذلك

وهي تترقى إلى الكمال وتقترب إلى فكرة التتريه التي سبقهم إليها المصريـــون والهنود والفرس والعبرانيون.

لقد كان أرباب الأوليمب يقترفون أقبح الآثام، ويستســـلمون لأغلـــط الشهوات، وقد قتل زيوس أباه «كرونوس» وضاجع بنته وهجر السماء ليطارد ويغازل بنات الرعاة في الخلوات، وبقي «زيوس»إلى عصر «هوميرو» خاضعـــاً للقدر مقيداً بأوامره، ولقد صوره «هزيود» الشاعر المتدين على مثال أقرب إلى خلائق الرحمة والإنصاف ومثال الكمال، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقـــدم منه وهي «جيا» ربة الأرض، و«كاوس» رب الفضاء، و«ايروس»رب التناسل والمحبة الزوجية، وجعل ايروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء، فتلد منـــه الكائنات السماوية والأرضية، وآخرها أرباب الأوليمـــب، وعلـــى رأســـهم «زيوس» الملقب بأبي الأرباب .

«السنوفون» المولود بآسيا قبل الميلاد بست قـــرون أول مـــن نقـــل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المتره عن الأشياء، وكان ينعى على ابناء قومه عبادة أرباب على مثال أبناء الفناء، ولقد كانت الديانات الآسيوية والمصرية أظهر مما تقدم في الديانة الأورفية السرية، لأنها كانت ملتقى عبادة إيزيس وعبادة مـــترا، وعبادة المجوس والبراهمة .

فعرفوا الروح وتناسخ الأرواح، وعرفوا أدوار التطهير والتكفير، وجعلـــوا الخمرة رمزاً إلى النشوة الإلهية، نشوة الحياة والشباب الخالد المتجدد على مـــدى الأيام.

وكان اليونانيون يحتفلون بعيد يسمونه «الإنشتريا» يوافق شهر شباط، فيشربون الخمر، ويعتقدون أن هذه الخمرة تسري إلى الأجساد البالية، فتنفث فيها الحياة، وتصلحها للبعث من جديد في أجسام الأجنة المطهرة من أدران حياتها الماضية.

العقائد الدينية عند اليونان أخذوها من الآخرين، و لم يعطوا شيئاً يضيف إلى تراث البشر في مسائل الإيمان، وأنهم حين بدؤوا عصر الفلسفة كان أساسها الأول ممهداً لهم في العقائد التي أخذوها عن الديانات الآسيوية والمصرية،وظلوا بعد الفلسفة يدينون بالوثنية التي كانوا يدينون بها قبل الميلاد بعدة قرون .[1]

وخلاصة عبادة أهل اليونان الآتي:

١- عبد اليونانيون جميع أنواع العقائد، من عبادة الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل، ومزجوا هذه العبادات بطلاسم السحر والشعوزة.

٢- استمدوا من جزيرة كريت عبادة النيازك والحجارة البركانية.

٣-ترقى اليونان في تصور صفات الأرباب، فعبدوها قبل المسيح ببضع مئات من السنين وهي على أسوأ مثال، وعبدوها بعد ذلك وهي تترقى إلى الكمال.

---

[1] - الله - عباس محمود العقاد ص/ ١١٢/

العقائد الدينية عند بني اسرائيل

عبد بنو اسرائيل الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة وطواطم الحجـــارة والأشجار والحيوان، وبقيت عندهم عبادة الأوثان حتى بعد دعوة ابراهيم عليه السلام وظهور الأنبياء فعبدوا «عجل الذهب» في سينا بعد خروجـــهم عـــن الديانة المصرية.

وفي الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثاني، أن حزقيا ملك يـهودا «..أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس الـــتي عملها موسى، لأن بني اسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها...»

وجاء في الإصحاح التاسع عشر من كتاب صموئيل الأول، أن إحـــدى زوجات داؤد عليه السلام – ميكال –«أخذت الترافيم، ووضعته في الفـــراش ووضعت– لبدة المغرى – تحت رأسه وغطته بثوب» والترافيم هي تماثيل علـــى صورة البشر يرمز بها إلى الله.

دعا سيدنا موسى الأسرائليين إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان ويقال إن سيدنا موسى أول من سمى الإله «يهوا» وهو اسم لايعرف اشتقاقه، كما عبـد الاسرائليون الإله باسم«أيل» أي القوي في اللغة الآراميـــة ويصفـــون الايـــل بالصفات البشرية، وظلوا إلى مابعد موسى ينسبون إلى الإله أعمال الإنســـان

وحركاته، فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب وأنه دفن موسى حينما مات في /موآب/ لم تذكر الكتب الاسرائلية يوم البعث ويوم الآخر، فالأرض السفلى، أو الجب هي الهاوية التي تأوي إليها الأيتام بعد الموت، ولانجاة فيها لميت وأن الذي يترل إلى الهاوية لايصعد.

أول إشارة ليوم البعث وردت في الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب، «أشعيا» الذي عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد، وفيه نبوءة عن يوم «يطلب فيه الرب جند العلاء ويجتمعون ويجمعون جمعاً كأسرى في سجن، ويخجل القمر، وتخزى الشمس لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي اورشليم»

وفي الإصحاح السابع والعشرين، الرب سيعاقب بسيفه في ذلك اليوم «لوياثان الحية العارية، لوياثان الحية المتحوية، ويقتل التنين الذي في البحر»

وفي الإصحاح الثاني عشر من كتاب دانيال، جاءت إشارة إلى يوم البعث والدينونة، وهي أصرح من الإشارات السابقة حيث يقول فيها، النبي دانيال:«إن كثيرين من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للإزدراء الأبدي» ويلاحظ أن كتاب دانيال لايحسب من كتب العهد القديم في جميع النسخ.[1]

وتاريخ هذه النبوءة حوالي مائة وخمس وستين قبل الميلاد، والثواب والعقاب قبل ذلك كان نصراً على الأعداء، أو بلاءً يصابون به من أرباب الشعوب.

---

[1] - عباس العقاد - الله - ص/ ١١٤/

والكفر معناه كمعنى الخيانة الوطنية في الاسرائيلية الأولى، وكانو يحرمون عبادة إله الشعوب الأخرى كتحريم الإنتماء إلى دولة أجنبية.

وبقي الاسرائيليون على هذا المنحى حتى فهموا الوحدانية أيام اشعيا الثاني القائل إن الله هو الأول منذ القديم وهو المخبر منذ البدء بالأخير.

وسقوط عهد اشعيا الثاني أذن باقتراب يوم اسرائيل الموعود فعندما تداعت مصر وبابل وأذنت فارس بالتداعي والانقسام تجدد رجاء اسرائيل في ملك العالم، وفسروا سقوط الدول الكبرى بغلبة «يهودا» عليها وعقوبته لها على ماأسلفت من الإساءة إلى شعبه، ولاح لهم لأول مرة أن ربهم يبسط ظله على الأرض، وأن يوم الخلاص قريب.

وفي وضعهم للإله: إنه غيور، شديد البطش، متعطش إلى الدماء، سريع الغضب، ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه.

ولكن موسى عليه السلام وصفه بالرحمة، وفريقاً من أنبيائهم وصفوه بالحب واللطف، وعلموهم أنه يحب عباده، ويطلب من عباده أن يحبوه، كما قال هوشع «إنه يريد رحمة لاذبيحة».

العقائد الأسرائيلية شغلت جزءاً كبيراً من مقارنات الأديان لأسباب عديدة أبرزها:

١- نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات في الديانات الكتابية .

٢- صحبت التطور في فكرة المسيح المنتظر في مبدئها، فكانت تمهيداً للدعوة المسيحية .

٣- موضع مقابلة بينها وبين عقائد البابليين والمصريين والفرس والهنود الأقدميين، ولها صلة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة .

٤- صورت الإله على صورة إنسان يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويغار، ويخص قبيلته وحدها بالبركة والتشريع تجلى ذلك بالإله يهوه، فمن هو الإله يهوه:

احتل «يهوه» كإله - محارب قبلي المقام الأول، خاصة عندما بدأت قبائل الرعاة اليهودية

«الاسرائيلية» في شن هجماتها على المناطق الزراعية في كنعان (فلسطين) لقد بدأ احتلال الاسرائيليين فلسطين في القرنين /١٥-١٤/ق.م. وامتد بضع مئات من السنين،وشن اليهود خلالها حرباً متواصلة ومدمرة ضد السكان الأصليين لأرض كنعان، إن وحشية هذا الصراع الذي امتد قروناً عديدة وجدت تأثيرها في روح الكتاب المقدس ذاته وانعكاس الديانة فيها .

«فيهوه» كائناً من كان في البدء - يتقدم في هذا العصر كإله محارب قومي لكل الاسرائيليين أو لكل اليهود، يتقدم شعبه في صراعه ضد كل الأعداء، ويعبر دور «يهوه» هذا في كتب التوراة مثل خيط أحمر، ومن هنا جاءت صفة «يهوه» المتكررة- سباوف (سِباوت) وتعني إله المحاربين.

في الحقيقة يجري وصف احتلال فلسطين في الكتاب المقدس وكأنه مشيئة «يهوه» المباشرة «...إن الرب كلم يشوع أبن نون خادم موسى قائلاً موسى عبدي قد مات. فالآن قم أعبر هذا الاردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم، أي لنبي اسرائيل.

كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته،كما كلمت موسى من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير، نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم، أما أمرتك، تشدَّدْ وتشجعْ، لاترهب ولاترتعب لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب» (يشوع. ١:-٢-٤،٩). أما سكان فلسطين الأصليين فقد أمر الإله بإبادتهم بلا رحمة، إن أول مدينة كنعانية تم احتلالها بعد المعركة - وهي أريحا- جرى تدميرها من الأساس وقضى على جميع سكانها بحد السيف. (يشوع.٦: ٢٠، ٢٣). وكانت فعلتهم في ثاني المدن التي سقطت بين أيديهم، وهي مدينة (عاي) مثلما كانت في الأولى، ولم يبق يشوع ابن نون من الأحياء كما أمر«يهوه» سوى الماشية التي استلبها بمثابة غنيمة، وكان يهوه يشارك أحياناً بنفسه في المعركة مقدماً المساعدة لشعبه، ففي المعركة التي خاضها الاسرائيليون ضد الأموريين وبعد أن ولى الأخيرون الأدبار، «رملهم الرب بحجارة عظيمة من السماء» ببَرَد«فماتوا، والذين ماتوا بحجارة البرد هم أكثر من الذين قتلهم بنو اسرائيل بالسيف في المعركة «يشوع،١١:١٠». وبالمناسبة جرت هذه المعركة في الوقت الذي قرر فيه يوشع بن نون إطالة اليوم، كي ينجز فيه انتصاره، وجعل الشمس بكلمة منه تتوقف في السماء، «يشوع:١٢-١٣-» وانطبعت حروب اليهود اللاحقة بالرغبة ذاتها في سفك الدماء، وذلك عندما حسب تعبير التوراة «قتلوا كل نفس...ولم تبق نسمة» في أي بلد كانوا فيها من البلدان المحتلة (يشوع، ١١-١١) لقد فسرت هذه الوحشية جزئياً كرد على المقاومة العنيفة التي أبداها سكان المدن، والذين علموا على مايبدوا أن انتظار الرحمة من قبل الغزاة هو عبث مجنون، غير أن هذه الشراسة من قبل واضع الكتاب المقدس تترافق مع وقاحة لامبالية، تبدو من الإله

ذاته: «لأنه كان من قبل الرب، أن يشدد قلوبهم حتى يلاقوا اسرائيل للمحاربة، فيحرّموا فلا تكون عليهم رأفة بل يبادوا كما أمر الرب موسى» «يشوع الفقرة ٢٠» والنتيجة، أن الخطة التي وضعها السيد الإله كانت درجة من الوضوح، بحيث أدت إلى أقفار البلاد من سكانها، ونجت بعض الشعوب المجاورة لليهود فقط من أمر الإله بإبادتها، غير أن هذا لم يكن بدافع من رأفته بها، وإنما تكراراً للحسابات الماكرة، لقد جرى أبقاؤها لتكون أداة امتحان لليهود مستقبلاً باعتبارها مادة تعليمية تقوم اسرائيل بالتدريب عليها مستقبلاً في أعمالها الحربية (القضاة ٢، ٢١، ٢٣)

«فهولاء هم الأمم - يكتب بروح الحقد واللامبالاة ذاتها واضع الكتاب المقدس - الذين تركهم الرب ليمتحن بهم اسرائيل كل الذين لم يعرفوا جميع حروب كنعان، إنما لمعرفة أجيال بني اسرائيل لتعليمهم الحرب، الذين لم يعرفوها قبل فقط، أقطاب الفلسطينيين الخمسة وجميع الكنعانين والصيدونين والحويين سكان جبل لبنان» «يشوع ٣٠: ١-٣» يجب القول، إن الاسرائيليين قاموا باستخدام هذه المادة الحية الموضوعة كرصيد في صالحهم: فهم بعد استيلائهم كلياً على البلاد، استمروا بشكل لايصدق في الإستيلاء بوحشية وذبح الآمنين، أما «يهوه» فكان يحضهم على الآتي: أنزل أشد العقوبات بالذي يبدي شيئاً من اللين، ويأمر بوحشية بقتل الآخرين. وباعتقاد اليهود أن«يهوه» خالق الكون ومالك كل ماعليه، هذه الفكرة نجدها متناقضة، فإذا كان يهوه خالق الكون ومالك كل ماعليه لماذا جعل شعبه المختار صغيراً، لايميز بشيء خاص عن غيره، حيث يقوم هذا الشعب بخيانته وهو «يخونه» في كل خطوة من خطواته.[1]

[1] - الأديان في تاريخ شعوب العالم ت. د. أحمد م فاضل ص/ ٣٧٧/

المسيح وعقائد بني اسرائيل

في عقائد بني اسرائيل ثبتت فكرة المسيح المنتظر بعد زوال ملكهم وانتقالهم إلى الأسرة في بابل،وكلمة المسيح تعني «الممسوح بزيت البركة» لأنهم كانوا يمسحون به الملوك والأنبياء والكهان والبطاريق .

كان شاؤل الملك يسمى بمسيح الرب كما جاء على لسان داود في كتاب صموئيل الأول: «حاشاني من الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدي مسيح الرب»، وكانوا يمسحون الأنبياء بالزيت المبارك كما جاء في كتاب الملوك الأول «وامسح اليشع بن شاخاطا نبياً عوضاً عنك» ويمسحون به الكهان كما جاء في كتاب الخروج «هذا ما نصنعه لهم لتقديسهم... نأخذ دهن المسحة ونسكبه على رأسه ونمسحه». ويمسحون به البطارقة ويسموهم بالمسحاء، كما جاء في المزمور الخامس بعد المائة «لاتمسحوا مسحائي، ولاتسيئوا إلى أنبيائي«وكانوا يمسحون به كل مايريدون تقديسه كما جاء في كتاب اللاويين:»ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل مافيه وقدسه، ونضح منه على المسيح سبع مرات، ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها، وصب من دهن المسحة على رأس هرون ومسحة لتقديسه» واعتقد الاسرائيليون في مبدأ الأمر أن المسيح ينتظرونه كملك من

نسل داود، سوف يسمونه أبناً لله كما قال ناتان لداود عليه السلام في كتـاب صموئيل الثاني«هو يبني بيتاً لإسمي وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبـد...أنـا أكون له أبا وهو يكون لي أبناً»

لقد أطلق الاسرائيليون اسم المسيح على كل من يعاقب أعداءهم ويفتـح لهم باب الخلاص من أسرهم كما فعل كورش بالبابليين فجاء في كتاب أشعيا: «هكذا يقول الرب لمسيحه: لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس به أمماً».

وخطر حيناً للنبيين، زكريا، وحجاى، في أواخر القرن السادس قبل الميلاد أن -زربابل-والي يهودا- هو المسيح المنتظر، لأنه أعاد بناء البيـت في السـنة الثانية للملك داريوس، وتغيرت هذه العقيدة مع الزمن فـأصبحوا ينتظـرون الخلاص على يد العادلين فقال زكريا في رؤياه: «ابتهجي يـابنت صـهيون، أهتفي يابنت أورشليم، هو ذا ملكك يأتي إليك، هو عادل ومنصور وديـع، راكب على حمار: على جحش، جحش بن أتان».[1]

«يقول المستشرق جيب: إن الأحيائية بما تنطوي عليه من مخاوف ولاعقلية وقوى متخيلة (ماورائية) لأنها توجد في نطاق (تحت الشعور) الخاص بكل دين تاريخي لأنها جزء محتوم من تراث الإنسانية، تراث خمسمائة ألف سـنه ترقـد وراء خمسة آلاف سنة عمر النمو الديني، فالدين التوحيدي لايسـتطيع إلغـاء ذاكرة البشر، وإلا خرج عن الواقعية والموضعية، وعجز عن كسب المؤمنـين، والواقعية الموضعية تقتضي تجريد الواقع لفهمه أكثر استناداً إلى مفاهيم سـابقة يجري تطويرها .

[1] -الله - عباس محمود العقاد ص/ ١١٧/

هكذا أصبح إيل كبير الآلهة الفينيقي (الكنعاني) أول إله لليهود، إذ عندما يظهر الرب ويبشر هاجر باسماعيل: دعت اسم الرب الذي تكلم معها: أنت إيل رئي، وعندما: بكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً، وصب زيتاً على رأسه ودعا أسم ذلك المكان بيت إيل، وبدّل يعقوب أسمه ليصبح (اسرائيل) أي محبوب إيل أو مختاره أي الذي اختاره إيل، فأقصيت عبادة البعل .

إن اليهود كبنية مجتمعة متخلفة عن التطورات التي حصلت عند الفينيقيين لم يكونوا مهيئين بعد لتقبل بعل، ولكنهم وتحت تأثير جيرانهم عادوا إلى عبادة بعل: وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر في عيني الرب، البعليم والعشتاروت وآلهة... إذ أن مملكة يهوذا بكاملها عادت بقيادة يربعام لعبادة بعل، وبقيت اسرائيل على عبادة ايل، ودفعا للإلتباس تحول ايل إلى (يهوه) الذي يتضمن بعض الخصائص الأنثوية.

«يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم واسحق، وإله يعقوب، أرسلني إليكم،هذا اسمي إلى الأبد» وإله هؤلاء هو إيل كما ذكرنا آنفاً.

أما المسيحية، وهي حركة أصلاح يهودية، فتمثل عودة الإبن (بعل) لأخذ موقعه الذي فقده، وقد قال السيد المسيح قبل موته على الصليب «إيلي...إيلي سبقتني» أي إلهي..إلهي..لماذا تركتني، وكما لم يحاول أدونيس أو بعل المقاومة كذلك استسلم المسيح للموت، و لم تفهم الذهنية اليهودية آنذاك التي تحجرت حول مفهوم الرب، أبعاد المصالحة بين الأب والأبن التي قادها السيد المسيح».[1]

---

[1] -طرطوس حضارة وجمال - أحمد غانم ص/ ٤٦/

فلسفة الدين في المسيحية والإسلام

لم يشهد التاريخ قبل السيد المسيح رسولاً رفع الضمير الإنساني كما رفعه، ورد إليه العقيدة كلها كما ردها إليه، وقد جعل الضمير كفؤاً للعالم بأسره، لأن من ربح العالم وفقد ضميره فهو مغبون «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، وماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه».

إن الطهر كل الطهر من نقاء الضمير، في الخير والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والابتعاد عن الشر والاقتراب من الخير وتقديم العون والمساعدة للإنسانية كلها، وهذه تأتي من داخل الإنسان: يقول السيد المسيح «فليس شيء من خارج يدنسه... بل مايخرج من الإنسان هو الذي يدنس الإنسان».

وحياة الإنسان وبقاؤها ليست من خارج الإنسان وإنما تأتي من داخله، فأمواله لاتجلب له الحياة وإنما العكس، قد تساهم في تقصير عمره، عندما لايستخدمها في المكان والزمن المناسب،فإذا سيطر الضمير والوجدان والعقل على ماتأمر نفسه بالسوء، ووظف أمواله لتحقيق غاية نبيلة لابد من أن يظفر هذا الإنسان بالخلود، يقول السيد المسيح:«فليس حياته من أمواله» ويقصد بهذا الإنسان.

لم يعط السيد المسح أهمية للمادة، إلا لإستمرار النوع البشري فقط، لتعمر الأرض، واعتبر أن الكلمة الطيبة، الضمير الحي، الوجـدان الصـامد، الخـير المستمر، البسمة البريئة، كلها مفاهيم معنوية بها يحيا الإنسان، «وليس بـالحيز وحده يحيا... بل بكل كلمة طيبة من كلمات الله، والحياة أفضل من الطعـام» ويقول السيد المسيح:

احترزوا من صدقة تصنعونها أمام الناس، وإلا فلا أجر لكم عند أبيكـم الذي في السموات، وإذا بذلت الصدقة فلا تنفخ أمامك بالأبواق كما يفعـل المراؤون تفاخراً بين الناس، فالحق اقول لكم قد استوفوا أجرهم... فلا تعـرف شمالك ما تفعل يمينك، فأبوك الذي يراك في الخفاء، يجزيك في العلانية».

وعندما ظهر الإسلام في الجزيرة العربية، كان عليه أن يصحـح أفكـاراً كثيرة، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبـادات الأولى وزيادات المتنازعين في تأويل الديانات الكتابية.

لقد كانت المسيحية أول دين أقام العبادة على «الضمير الإنساني» وبشـر الناس برحمة السماء، لكن رسالة الإسلام، أول ديـن تمـم الفكـرة الإلهيـة وصححها، مما عرض لها من أطوار الديانات الغابرة.[1]

فالفكرة الإلهية في الإسلام لا يتغلب فيها جانب على جانب، ولاتسـمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة، ولاتجعـل لله مثيـلاً في الحسـن ولافي الضمير، بل له «المثل الأعلى» وليس كمثله شيء.

---

[1] -الله – عباس محمود العقاد ص/ ١٥٩/

لقد كان العالم بحاجة إلى عقيدة الإسلام، كما كان بحاجة إلى العقيدة المسيحية من قبله، فجاءه السيد المسيح بصورة جميلة للذت الإلهية، وجاءه محمد عليه السلام بصورة تامة في العقل والشعور.

وربما تلخصت المسيحية كلها في كلمة واحدة هي - الحب -.

والإسلام تلخص بكلمة واحدة هي - الحق -.

والملاحظة إن المسيحية دين «الحب» لم تأت بتشريع جديد وإن الإسلام دين «الحق» لم يكن له مناص من التشريع، حيث لم يكن الناس بحاجة إلى تشريع عند ظهور السيد المسيح، لأن شرائع اليهود وقوانين الرومان كانت حسبهم في أمور المعاش كما يتطلبها ذلك الزمان وكانت آفتهم فرط الجمود على النصوص والمراآة بالمظاهر والأشكال، فكانت حاجتهم إلى دين سماحة ودين إخلاص ومحبة فبشرهم السيد المسيح بذلك الدين.

أسس الإسلام النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو عربي عاش في مكة، تلقى الوحي من عند الله آيات سطرت في الكتاب المقدس «القرآن» ويقسم القرآن إلى /١١٤/سورة وليس لها ناظم سوى حجمها، فالأكثر طولاً منها أقرب إلى أوله، والأكثر قصراً - إلى آخره، إن الشهادة والتبجيل بعظمة الله وقدرته تتدرج مع الفروض، والتحريم والوعيد «بجهنم» لكل من عصى في الحياة الآخرة، ونصوص القرآن نقيه تماماً لم يطرأ عليها أي تغيير.

ترجم القرآن إلى الإنكليزية عام /١٧٣٤/ والألمانية عام /١٧٧٢/ والروسية عام /١٨٧٧/.

القرآن يعتبر المصدر الأساسي لتعاليم الإسلام وهذه التعاليم بسيطة للغاية فعلى المسلم أن يؤمن بشكل راسخ بوجود رب واحد لاغيره هو الله.

وأن محمداً رسوله ونبيه، وأن الله بعث من قبله رسلاً للناس غيره - هم من ذكروا في التوراة، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى المسيح، ومحمد خاتم الأنبياء، وأن هناك الجنة والملائكة والجن- وكانت هذه المعتقدات سائدة قبل مجيء الإسلام في معتقدات العرب القديمة- وهي لا تضمر السوء على الدوام وتأتمر بأمر الله وتعمل بمشيئته، وأن الموتى يبعثون في آخر يوم من أيام الدنيا ليقدموا للحساب على ما فعلته أيديهم، فالصالحون الذين عبدوا الله مآلهم جنات النعيم ومرتكبو الذنوب والكافرون مأواهم جهنم يتلظون فيها عذاب السعير.

والإسلام فرض «الجهاد» وهو لمحاربة المشركين والكفار (القرآن سورة البقرة ١٨٩ -١٩٣ - سورة النساء الآيات ٧٤-٧٦-)فموقف القرآن من المشركين أتباع العبادات القبلية والوثنية متشدد للغاية، «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين» سورة التوبة /١٢٢/. ويعرب المؤمنون عن احترامهم لـ «أتباع الكتاب» أي نحو اليهود والمسيحيين، وهذا مفهوم مادام الإسلام يقر بالمسيحية واليهودية أدياناً سماوية، غير أن القرآن نص على فرض القتال ضد أولئك «الذين لا يؤمنون بالله... من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون» التوبة ٢٨.[١]

[١] -الأديان في تاريخ شعوب العالم سيرغي أتو كاريف ص/ ٥٤٠/

يفرض الإسلام على المؤمن أن يكون عادلاً. ويقابل الإحسان بالإحسان والسيئة بالسيئة، وأن يتصف بالكرم ويعين الفقير والبائس، ويعترف القرآن بحقوق النساء المدنية والإنسانية، وجميع المسلمين متساوون أمام الله.

وفكرة الخير والشر في فكر «كيرينتوس» يقول عنها الآتي: لم يكن خالق عالمنا الإله الأعظم أبداً، وإنما فيض الإله الأعظم، فيض دهر من الدهر، ليس غيره، أي الصانع الحقيقي الذي يخرج عن أصله وطبعه شيئاً فشيئاً، ويحرص نفسه تدريجياً، ويقف الآن في هيئة مبدأ الشر من مبدأ الخير، أو اللوجوس المتسق مباشرة من الإله الأعظم، موقف الضد، هذه النظرة الوجودية الغنوصية،هي هندية الأصل، ولقد حملت معها مذهب تجسّد الإله، وأمانة الجسد والاستيطان الروحي، وأوجدت حياة الرهينة والزهد المتأملة، التي هي أنقى زهور الفكرة المسيحية، و لم يكن في إمكان هذه الفكرة، إلا أن تضطرب اضطراباً شديداً في تعاليم العقيدة والدين، وتفصح عن نفسها في العبادات على نحو شديد القتامة، على أننا نرى أن تعاليم المبدأين كليهما تظهر في كل مكان، فالمسيح الخيّر الطاهر يقف من الشيطان الخبيث الشر، موقف الضد، ويتمثل عالم الروح بالمسيح .

أما عالم المادة فيمثله الشيطان، ثم أن روحنا ملك للمسيح، على حين أن جسدنا ملك للشيطان، وعالم الظواهر كله- أي الطبيعة- هو في الأصل وتبعاً لذلك شرير، وأن الشيطان، أمير الظلمة، سيوقعنا بذلك في التهلكة، ولابد من الزهد في كل متاع الدنيا وملذاتها، ويجب تعذيب جسدنا الذي هو إطاعة

الشيطان، وذلك لكي تحلّق الروح عالياً على نحو رائع عظيم في السماء المضيئة، في مملكة المسيح الساطعة النيرة.[1]

«ويعلمنا سبينوزا أنه لا يوجد إلا جوهر واحد وهو الإله،وهذا الجوهر الواحد لامتناه، إنه مطلق، ومنه تشتق كل الجواهر المتناهية ويحتويها وتبرز منه وتغيب فيه وليس لها إلا وجود نسبي مؤقت وعرضي، ويتجلى لنا الجوهر المطلق في صيغة التفكير اللامتناهي، وهي صيغة الأمتدد اللامتناهي على سواء، وكلاهما التفكير اللامتناهي والأمتداد اللاّمتناهي، صفتان للجوهر المطلق، ولاندرك إلاهاتين الصفتين، وقد يكون لله الجوهر المطلق، صفات أخرى لانعرفها.» يقول سبينوزا: «فأنا لاأقول أنني أعرف الله معرفة تامة، لكنني أقول إنني أرى صفات معينة، ولو أنها ليست كل الصفات، أو حتى الجانب الأعظم منها».[2]

---

[1] -في تاريخ الدين والفلسفة ت وتقديم صلاح حاتم ص/ ٢٧/

[2] - في تاريخ الدين والفلسفة ت وتقديم صلاح حاتم ص/ ٧٣/

مفهوم الخوف

الخوف قوة خفية، راقدة في شعور ولاشعور الإنسان، وتتحرك بشكل لاإرادي من خلال العصب الحسي، على أثر أفعال في الظاهرة، تكون هذه الأفعال، وخاصة المتحركة منها تحت عدسة الحواس، ومن خلال ردات الفعل، والفعل المنعكس، تشكل عند الإنسان مفاهيم وأدراكات، أختزنها في داخله، وهذه المفاهيم لاتموت، وتستيقظ في الوقت الذي يجب أن تستيقظ وبشكل لاإرادي.

هذه القوة الخفية، لاتدرك من العقل، ولامن الحواس، ولاتتحكم بها أي آلية إرادية من خلال الإنسان نفسه، ولاتعطيك فرصة أدراكية لمناقشة الموقف الطاريء، وردود فعلها على الموقف فوري، وشديد السرعة وقد يكون هذا الرد الفوري المسبق الصنع والجاهز، ناتج عن موقف، من ظاهرة، لاتريح الإنسان، وتسبب رعباً وخوفاً له، وهذا خلق شبكة من الدفاعات الذاتية التي تنطلق آلياً من داخل الإنسان، لمواجهة من يسبب له عدم التوازن والاستقرار.

هذه الآلية لاتستاذن العقل ولاالحواس، بل تأمر الحواس، وتضغط هذه عليها من خلال العصب الحسي المأمور من الجملة العصبية التي تشكل بنية العقل، للهجوم والرد على الموقف المستجد.

إن الآلية التي يعمل بها الدماغ في المواقف المفاجئة، هي آلية معقدة، وهي كالآلية التي يعمل بها سائق السيارة، عندما يفاجأ بموقف يسبب له خطورة، لكن هنا الآلية، تختلف عن آلية عمل الدماغ الإنساني.

فهنا يتعامل السائق مع مادة محسوسة وملموسة، يستطيع تحريكها، واستخدامها لخدمة الموقف، وهي لاتنصهر، ومفصولة مبنىً عن السائق بينما في الآلية التي يعمل بها الإنسان، فالحواس الملامسة والساقطة، خيوطها على الظاهرة المتحركة، مرتبطة بالعالم الداخلي للإنسان، وهي - أي الحواس والشعور - في مبنى واحد، أو حسم له شكل ومضمون، ولاينفصلان، وفي المواقف يكون هذا المبنى، السد المادي والمعنوي لمواجهة الموقف الطارئ.

والخوف يتشكل عند معطيات ظاهرة مرئية بالصبر، أو من صور ظواهر في الخيال غير مرئية بالعين المجردة، بل تدرك بالبصيرة من خلال تضخيم الخيال لها.

ففي الحالة الأولى: عندما تشاهد الظاهرة المخيفة والمرعبة بالعين المجردة، فلابد من موقف فوري، تصوره الحواس، وترسل صورته إلى الدماغ لدراسته، ووصف العلاج اللازم، لتقوم الحواس بتنفيذه، فمثلاً عند مشاهدة أفعى، يستقبل الدماغ صورها من خلال الحواس، وهنا يدرك الدماغ خطورة الموقف، فيأمر الحواس من خلال العصب الحسي بالرد بالأدوات الموجودة والمحيطة بالناظر، السرعة بالضرب والهجوم على الأفعى، أو بالابتعاد عن هذا المشهد المخيف والمرعب.

هذا الموقف يتخدر في الذاكرة، ويبقى في الشعور وفي اللاشعور ويتشكل من خلال هذا الموقف، مفهوم خاص، عن هذه الأفعى، والخوف الذي تسببه للناظر.

هذه الواقعة تطوب في الذاكرة، ويبقى معناها وهالتها في خانة الخوف والرعب، ولاتُنسى، كما أن المكان الذي حدثت فيه هذه الظاهرة، يبقى مصدر رعب وخوف وشؤم على مر الزمن، وتسترجع صورته من شعور ولاشعور الإنسان الذي وقعت معه، وخاصة عندما يمر بهذا المكان، حيث ينتفض الشعور وكأن الحادث وقع للتو.

وفي الحالة الثانية: عندما لاترى الظاهرة، فهنا المشكل، لأن الخوف يقع على مبنى الإنسان، وبالتالي نتائجه على مبناه، وهذه مسألة جديرة بالبحث والتنقيب لأن فيها العبر والدروس، فالصراع هنا ساحته داخل الإنسان، والفعل وردات الفعل ضمن حجرة الشعور، والنتائج تظهر هنا على مبنى الإنسان من الداخل والخارج.

فالعمق في التفكير، وتخاطر الأفكار والخوف من المجهول، يضغطان على الشعور الداخلي، وهنا لابد من الإصابة، بالكآبة والقلق،وكابوس الأحلام المزعجة، وربما نتج عن دللك الإنفصام في الشخصية، وعدم قدرة الذهن على تركيز توازنه في المحيط الذي يلفه، ويصل إلى «الجنون» أو يصاب بالمرض، فينعكس على مبناه، وبالتدارج يضمحل جسمه، ويستمر في الضعف إلى أن تموت الأعصاب، وهذا يؤدي إلى نهاية الحياة.

وفي هذه الحالة لاتقيده المعالجة المادية، لأن الجرح داخلي نفسي معنوي لايقبض عليه، ولايتحكم به الطب.

وكم علمنا التاريخ، من خلال مأدون ضمن طيات الكتب عن الأنهيارات العصبية والشلل الدماغي، أو الموت، بالسكته القلبية، عند سماع صدى نبأ له

خلفية، لايستطيع البعض أن يتصوره، أو يتحمله، وذلك للخلل المادي والمعنوي الذي حدث.

فالخوف، تشكلت نواته عبر رحلة الإنسان التاريخية، منذ بدأ الإنسان يتحرك على الطبيعة،ولقد تعمق هذا المفهوم، حتى ارتبط بالظواهر المرئية وغير المرئية، إلى أن تشكلت القناعات، بالإبتعاد عن هذه، وتلك، وتقديم لها مايرضيها من القرابين، أو النفقات المادية، أو المواقف المعنوية، استجداءً لها للرضى عن طالب العون، ومساعدته لتحقيق حسن الطالع له، في الحياة وفي الممات.

إن مصدر الخوف المادي على الفرد والأسرة والمجتمع لاينكره عاقل وعلى جميع المستويات يحصن الإنسان نفسه من شره وأثره الذي لايجمد، فالمصدر المادي للخوف هناك آلية لاشعورية يعمل بها الإنسان ليتقي هذا الشر، وبالمقابل، يجب أن يكون في داخل الإنسان في ضميره ووجدانه، في ملكاته العقلية آلية تعمل لكبح الإنسان عن أي فعل يقوم به، هذه الآلية تكون منعكسة عن المصدر المعنوي للخوف، عن الواجد اللاموجود، عن الذي يدرك بالعقل، فالإنسان المنسجم شكلاً ومضموناً ظاهراً وباطناً تتشكل عنده آلية يواجه بها مصادر الخوف المادية، تكون مطابقة تماماً بالشكل لمواجهة مصادر الخوف المعنوية، فالإنسان المؤمن بالذي لايرى، يبتعد عن الكذب والسرقة والنميمة والغش، والحسد والأذى والبغض ويعترف بالآخر ويتصرف متأثراً بالذي لايرى، وكأنه يتربع على كرسي يراقب تصرف كل أنا يحاول تقديم الأذى للأنا الآخر، ولكن من مراقبة ردود فعل الإنسان نحو مصادر الخوف نرى الذي نراه، سواء كان ذلك مستوى الفرد أو الأسرة أو المجتمع، مع وجود بعض الظواهر التي تذكر في بعض الزوايا المظلمة من سطح الكرة الأرضية .

السد المادي والمعنوي للتأقلم والتوازن على الأرض

هناك شروط لديمومة المخلوق وهذه إن لم تتوفر فلا بد من وجود الخلل في العيش على هذه الأرض.

فالهواء والماء والطعام والأمان والمسكن وغيرها لابد من توفرها، ومن أجل ذلك، ولضروريات هذه، يبحث كل مخلوق لإيجاد التوازن بينه، وبين المحيط الذي يعيش به، ولابد من وجود هذا التوازن في مبنى المخلوق شكلاً ومضموناً، إحساساً وشعورا.

فالتوازن بين المخلوق ومحيطه، يأتي من قدرة هذا المخلوق في ترويض الواقع من خلال تشغيل عقله في كشف ومراقبة الظواهر الجامدة، والمتحركة في الطبيعة ورصدها ومراقبتها من خلال تشغيل عقله في كشف ومراقبة الظواهر الجامدة، والمتحركة في الطبيعة،ورصدها ومراقبتها من خلال حواسه، وتخزين الأستنتاجات الأستقرائية في الإدراك العقلي، لتشكيل المفاهيم والماهيات، عن جوهر وكنه هذه الظواهر، بما في ذلك، ايجابياتها وسلبياتها،خيرها وشرها، مدها وجذرها، خريفها وربيعها، حرها وبردها، ظاهرها وباطنها، ومن ثم كيفية التعامل معها، وكيف يتم ترويضها ولجمها بضوابط، للإستفادة منها، هذه الضوابط، تستنبط من خلال الأختبار

والتجريب والملاحظة والمراقبة، والتي يقوم بها العقل الخلاق، من خلال ردات فعل الظاهرة، والتي تتأثر هذه بردات فعل الظواهر الأخرى، كالماء والهواء والعواصف والرعود والبروق وغيرها من الظواهر، ففي البدايات تعامل الإنسان البدائي معها بشكل غريزي نتيجة التأخر في النطق وقلة التعلم، وعدم معرفة الأشياء الجامدة والمتحركة.

وكما قلنا سابقاً، تعلم الإنسان من خلال الصدف السلبية و الإيجابية التي اعترضته، ومن خلال يومياته التي كان يستفيد منها، ومن ثم نقل هذه المعلومات إلى الآخرين، بالإشارة تارة، وبفعل الحدس تجاه الآخر، ليعلمه ويستفيد من حركاته، التي تلبي له حاجة التوازن مع المحيط الذي يلفه، سواء كان ذلك بشرب الماء أو تناول الطعام، أو الإبتعاد عن الظاهرة التي تقدم له الشر أو الموت.

فالتوازن بين الإنسان ومظاهر الطبيعة، ومايوجد عليها كان الهدف الأساسي في البدايات، وهذا ضروري لديمومة النوع البشري وغيره من المخلوقات، وهذه الديمومة، التي هي مطلب لاشعوري ولاإرادي، سببها فعل لاإرادي، نابع من داخل المخلوق تمسكاً بالبقاء، لأن الروح التي تجري في مبنى الإنسان وغيره من المخلوقات، يعز عليها مغادرة مبناها، وهذا الواقع- بقاء الروح - تتدخل به حواس الإنسان وشعوره الداخلي، ويلتحمان معاً وينصهران، لخلق الموقف المناسب، تجاه من يشكل خطورة أمام ديمومة الحياة.

وللحفاظ على بقاء الروح، لابد من أن يتشكل السد المادي، المغلق بالسد المعنوي، وهذا

يأتي من العقل المدبر في حساب مسافة السبق لكي لايخطئ السهم الهدف الراد رميه، وذلك لوضع حد بالقدر المستطاع، لتوفير شروط الحياة، بالتغلب على مظاهر الطبيعة المرعبة، وذلك لخدمة النوع البشري.

السد المادي، يرضي العالم الخارجي للإنسان، ويلبي له المطلوب للسيطرة على الأزمات،وبالمقابل لابد من سد معنوي، يدغدغ شعور الإنسان، ويدخل إلى عالمه الداخلي، لتتم عملية الإنسجام والتوازن في مبناه ومعناه، ومن هنا ظهر مفهوم الخوف من الظواهر المادية والمعنوية، فالبرق والرعد والشمس وخيوطها، وصليل الرياح وسرعتها، والأنهار وغزارتها، وسكون الليل، والوحوش الضارية، والغابات وثعابينها، والأشجار وحفيفها، والفصول وتنوع ثمارها، والأمطار وشدتها، والغيوم وحركتها، والنجوم وكثافتها، وتبدل الليل والنهار، كلها مظاهر لها مبناها، ولهذا المبنى طيوف تشع وتدل لمعناها.

هذه المظاهر، أدخلت الرعب والخوف والقلق وعدم الأستقرار عند الإنسان البدائي، وهذا أدى إلى تسليط الأضواء ومحرق البصيرة لهذه الظواهر لترويضها والتقرب منها لناحيتين:

الجانب الأول لتقديم الخير للإنسان، والجانب الثاني لاتقاء الشر الذي تحويه هذه الظواهر، وفي عملية الترويض هذه، أعطاها الإنسان قداسة، وذلك نتيجة هالتها المرعبة، والتي شغلت الإنسان البدائي وذهنه، وسيطرت عليه، حتى استغرق بها الإنسان.

وأصبح ضعيفاً يسيطر على الخوف من الحجم التي تسطحت به، على الواقع المعاش عليه.

وعندما أعطاها الإنسان نوعاً من القداسة، أستسلم لها ظناً منه أنها هي مصدر الخير والدفء المعنوي.

ومن هنا كانت النواة الأولى للسد المعنوي، الذي وَجَدَ فيه الإنسان ضالته، التي ترضي عالمه الداخلي في تحديد مصدر الخوف، ومن ثم تحديد موقفه من هذه المظاهر، لإرضائها، ظناً منه أنها قوة خارقة، على الإنسان اعترافاً منه لها بعظمتها وقداستها .

هذا الاعتراف، سبق إليه الإنسان البدائي لأن عقله محدود، نتيجة ضحالة الخبرة والتجارب، وحاجته الماسة إلى التوازن والاستقرار، مع الواقع الذي يحيط به.

في هذا الوسط تشكل الأنا الفردي، تمهيداً لتشكيل الأنا الجمعي، وكم كان الأنا الفردي،أنانياً في بعض الجهات من الأرض، في عكس الظواهر المرعبة بشخصه، بأنانيته، لنقل القداسة منها إليه.

وكم كان هذا الأنا الفردي جباراً في فرض القرابين البشرية لتأدية الطاعة والإنحناء أمام الإله المقدس، ومن هذا الواقع والواقع الآخر، سيطر الخوف على الإنسان البدائي، إحساساً وشعوراً.

مصادر الخوف

للخوف مصدران:

المصدر الأول مادي: والمصدر الثاني معنوي وهو الأخطر.

١- المصدر الأول: المادي: يقع في العالم الخارجي وهو منظور ومرئـــي، ويقع تحت الحواس، وله شكل ومضمون، وقوة مضمونه تعكس هيبة الشـكل، فالظواهر المتحركة والثابته، وماأكثرها، كانت في البدايـــات قبـل الأديـان الكتابية، مصادر رعب وخوف، وذلك بسبب جهل الإنسان وعدم قدرته على تفسيرها للسيطرة عليها، ووضعها بخدمته، فالأنهار والرياح، كـــانت كلـــها مصادر لتقديم الرعب والخوف للإنسان البدائي، لذلك أعطاها أهمية، وركـــز احساسه، وحدّق بها طويلاً، حيث انعكس ذلك على شعوره الداخلي، فوقـــع في صراع بين احساسه وشعوره، بين عالمه الداخلي، وعالمه الخـــارجي،إلى أن تشكل بداخله مفهوم، آمن به، تلبية لحاجة العوز المعنوي،ليرضي بهذا الإيمـــان هذه الظواهر، وذلك ليحقق الإنسجام بين ذاته، وقوى الطبيعة، لتتم عمليـــة التأقلم والتطبيع بين الطرفين.

طيوف الشمس وأشعتها اللطيفة هنا، والمحرقة هناك، وماتقدمه من نـــور، كانت من المصادر التي جعلت الإنسان البدائي يلفت نظره إليها ويعطيها نوعـاً

من القداسة، وكذلك القمر، ومايرسل من ضوء في الليالي المظلمة، وخاصة ضوؤه الساطع في الصحارى،والذي كان مصدراً دفء معنوي وخوف وأمان. وكذلك النجوم، وغيرها من مظاهر القبة السماوية، ولما لها من أثر منظور، فقد أولاها الإنسان البدائي الأهمية، لذلك أعطاها نوعاً من القداسة واعتبرها مصدر لتقديم الخير، كما أن بعض الظواهر أعتبرها الإنسان البدائي مصدر لتقديم الشر والخير معاً، كالأنهار والرياح والأمطار والنار وغيرها....الخ

١- المصدر المعنوي: فقد يكون مصدره مادي، فالآلة الحربية القادرة على تدمير الآخرين، تربك الآخر ولاتوفر له هذه الحالة الاستقرار، إلا إذا حصل على التوازن المفروض، وإذا لم يحصل هذا التوازن، فالخوف واقع لامحالة في الطرف الضعيف، وبالرغم من أن هذه الآلة لم تشاهد، وهناك الواجد غير الموجود، الذي يُرى بالبصيرة، ولايشاهد بالحواس، وهذا الغيب المرعب والمخيف والذي ارتبط به حسن الطالع، أيضاً مصدر ضغط على شعور وتفكير الإنسان، وهنا لابد من التسليم والرضوخ لما وراء الطبيعة.

- يرجح موللر أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده لأنه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد، الذي ليس له انتهاء، وأعظم مايراه هذا الكون هو الشمس، التي تملأ الفضاء بالضياء، فهي محور الأساطير والعقائد، كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات.

وإذا قيل لموللر إن «الأبد» أو اللانهائية معنى لاتوجد له كلمة في اللغـــات الهمجية ولاالحضارة الأولى، قال: إن الاحســـاس بالمعـــاني يســـبق اخـــتراع الكلمات.[1]

الإيمان بالمصدر المعنوي، لايناقش، ونتج عن هـــذا، الإيمـــان بـــالثواب والعقاب، وبالجنة والنار، وأن لكل حسب عمله، فمن يعمل خيراً،سينال خيراً، ومن يعمل شراً سيرى شراً.

فهذا المصدر المعنوي للخوف، له أثر أعمق في شعور الإنسان من المصـــدر المادي، ولقد أصبح هذا المفهوم الأشمل والأعم لأسباب عديدة، فتطور الفكـــر الإنساني، وتقدم العلوم والمعرفة، والتي كان من أبرز نتائجها اكتشاف ماهيات الظواهر الطبيعية والسيطرة عليها، وتسخيرها لخدمة البشر، والاستفادة منـــها بعد التحكم في سرها، والتغلب عليها، وهذا قلل من هيبتها، وبالتالي ظـــهرت هنا وهناك دعوات لفكرة التوحيد والاعتقاد بوجود خالق مدبر لهذا الكـــون، وقد أشرنا في بحث تطور المعتقدات الدينية هنا وهناك على سطح البســـيطة، الأرضية التي أوصلت بنا إلى فكرة التوحيد، والتي انطلقت من التوراة، مـــروراً بالأنجيل المقدس وصولاً إلى القرآن الكريم، وهذه الرســـالات، لاتختلـــف في الجوهر والمضمون والغاية التي أنزلت من أجلها، وكنا قد أشرنا بشكل مختصـــر عن القاسم المشترك الذي يجمع الأديان السماوية الثلاث، وهذا القاسم هـــو الثواب والعقاب في الحياة الدنيا والآخرة، وإن الله يعلم مابذات الصـــدور، وإن

---

[1] – عباس محمود العقاد – الله–ص/ ٢٣/

الجنة بانتظار المؤمنين، والنار للنقيض، وإن المحبة والمعاملة الحسنة وتقديم الخير، والابتعاد عن الحرام هي الغاية.

والإيمان بهذا شكلاً ومضموناً، قولاً وفعلاً تتجلى إيجابياته من المسائل التالية:

١- ترسيخ مفهوم الصدق: عندما يرتبط ضمير ووجدان العاقل بالواجد الغير مرئي، ويشعر بأنه مراقب بعين ترى ولاتُرى، هذه القوة الخفية التي آمن بها، والتي ترسخت عنده في ضميره وشعوره بأنها تطلع على مايقوم به من فعل، إن كان خيراً فلا بد من المكافأة، وإذا خالف المبادئ التي تنادي بها هذه القوى الخفية فلا بد من الحساب عاجلاً أو آجلاً، فإذا آمن بكل القيم الأخلاقية والإنسانية، والاجتماعية ووضع لنفسه حداً، يحترم به حقوقه وحقوق الآخرين، ويساهم في تلبية الواجبات تجاه نفسه وغيره، لابد أنه سيبعد عنه شبح الخوف من المجهول، لأن الاستقرار الداخلي، سينعكس على سلوكه في العالم الخارجي، وسيكون المضمون منسجماً مع الشكل والعكس صحيح، وهذا ناتج عن الإيماء الذي آمن به، ومن خوفه من المجهول، وعن العين التي أعتقد أنها تراقبه وتضبط يومياته بسجل محفوظ، كل ذلك ساهم في وضع ضمير الإنسان ووجدانه في مجرى لايحيد عنه، وهذا التصرف انعكس بخلق الصدق والاستقامة في العمل، وأبعده عن الغش والكذب والسرقة واستغلال الآخرين، وهذا يؤدي لانسجام الفرد بين شكله ومضمونه، بين ظاهرة وباطنه، حيث لابد سينعكس ذلك على تعميق مفهوم الصدق لأنا الفرد، ومن ثم للأنا الجمعي، وكم سيساهم هذا في ترسيخ قيم إنسانية وأخلاقية بين أفراد المجتمع،

وكم سيساعد هذا على بناء الإسرة والدولة بشكل لاتتضارب مصلحة الفرد مع الفرد الآخر.

الرادع المعنوي الغيبي المتمثل بحالة الخوف من المجهول، ومن سخط السماء إذا تعامى الإنسان عن حقوق الآخرين وكراماتهم، هذا الخوف يفرض على العاقل أن يعيش في أحلامه ويقظته، في نهاره وليله في أفراحه وأحزانه في ضعفه وقوته، في غناه وفقره، في خيره وشره، وكأن الخالق أمامه، وخلفه، من يمينه وشماله، فإذا آمن الإنسان بهذا المبدأ، لابد، من أن يكون عمله، انعكاساً لضميره ووجدانه، تعكس القيم التي يؤمن بها، مبتعداً في ذلك عن الكذب والنفاق والدجل.

والصدق هذا يجعل الإنسان منسجماً مع حواسه وشعوره مع قوله وفعله، مع باطنه وظاهره والعكس صحيح.

وفي هذه الحالة لايعيش الإنسان الصراع الداخلي الناتج عن الاختلاف مابين ظاهره وباطنه، وإذا اختلف هذا، فإن عملية التلفيق مابين الظاهر والباطن، ستجعله قلقاً وغير متوازن، وبالتالي سينعكس هذا على عالمه الداخلي الذي سيحترق .

وهذا الاحتراق، سيقوده إلى الهم والغم والمتاعب، وصرف حريرات ستنعكس على أعصابه وعلى صحته النفسية، ولابد من أن يدفع الثمن غالياً، لأن الشعور بالذنب داخلياً، سيضعه في جو الكآبة وعقدة الذنب وهذا لايحمد عقباه.

إن الصدق في كل المواقف، سينعكس على الصحـة النفسـية والعقليـة والجسدية، وسيجعل من هذا الإنسان المؤمن بهذه المبادئ إنساناً سوياً يقـدم الخير له وللآخرين.

إن الخوف من، مصادر الخوف، سمة إيجابية لاتؤذي الآخرين، بل تسـاهم في تعميق التعايش السلمي، وبتبادل الإعتراف بالآخر، وهذا يؤدي إلى الإبتعاد عن الغدر والأذى والكذب، والتعاون لما فيه مصلحة الفرد والأسرة والمجتمع.

الكذب يوصل صاحبه في نهاية المطاف إلى حائط مسدود، وهذا يؤدي إلى السقوط الاجتماعي، وإلى عدم التوازن، وإلى القلق نتيجة الحالة النفسية غـير المتجانسة التي يعيشها، بين ظاهره وباطنه.

ولقد توصل العلم الحديث عن طريق التجارب الملموسة من العلماء حديثاً على علاقة الأمراض الشائعة حالياً، كالسكري وارتفاع وانخفاض الضغـط، والأمراض الخبيثة، بالحالة النفسية للإنسان الغير مستقر والمتناقض مابين الشعور والإحساس، مابين باطنه وظاهره، وهذه الحالة تساهم في حرق بعض الخلايـا الداخلية، وتسبب نتائجها في ضعف المقاومة الداخلية الذاتية عنـد الإنسـان وبالتالي السقوط المادي والمعنوي في بنية الإنسان ومن ثم نهاية حياته.

المدد المعنوي وأثره على الجسم والروح

المدد المعنوي على الجسم والروح، غايته تحقيق الاطمئنان النفسي، وخلق ساحة تأملية من تخاطر الأفكار عن الآخر، لإبعاد شبح الخوف المادي والمعنوي عن الإنسان.

لم يكن الإيحاء في أي يوم من الأيام وفي أي زمن وفي أي مكان، وسيلة لغاية مادية، بل كانت المادة وسيلة لتدعيم الإنسان في إيمانه، وأثبات محسوس وملموس للغائب الغير موجود، والموجود، على طاعته والإيمان به.

فالقرابين بالعرف القديم، دية، عن زيد أو عمر، أو شفاعة، تنفق كوسيلة ملموسة، لكي يستجيب الخالق لطلب المخلوق، فالطبيعة عندما تحبس الأمطار ، والأوبئة عندما تحل، والكوارث عندما تعم، وتهدد البشر بالجوع والدمار والرحيل إلى عالم آخر، تتسارع هنا الضمائر لتقديم القرابين والأموال نزراً للخالق، لكي يستجيب ويضع حداً لهذه الكوارث، فالمادة كانت وسيلة، تهدر لجلب للاطمئنان، والشعور بالراحة والسعادة، لما تعكسه عند هدرها من طيوف وهمية، تدخل إلى أعماق النفس الإنسانية، بعملية مخادعة لحالته النفسية لتقدم له الارتياح المعنوي.

يقول الدكتور عادل العوا في كتابه من الشرق إلى الكرامة: «وقد يــهدف القربان البشري إلى دفع الأوبئة أو الوقاية منها، وقد ألمحنــا إلى أن الفينيقيــين كانوا يضحون بأعز أصدقائهم أبان الحرب، ولكنهم كانوا يضحون بهم أيضـا عند انتشار الطاعون، ومثل ذلك يفعل اليونان في ظروف مماثلة، وعندما يشتد خطر الوباء في ايطاليه القديمة كان الناس ينذرون تضحية كل ولــد يولــد في الربيع القادم. وفي السويد كان سكان «غوتلند» الغربية ينذرون تقديم قربــان بشري لمنع انتشار الطاعون، ولكنهم كــانو يختــارون متســولين صغــيرين ويدفنوهما على قيد الحياة، وتحكي رواية قديمة في «فور» في الدنمارك أن طفلاً قد دفن حياً في مقبرة للغرض ذاته»[1]

ويقول الدكتور عادل العوا: «لقد أشار»الكتاب المقدس«إلى قرابين كثيرة كتقديم «هابيل» أبكار غنمة، وأفتداء «ابراهيم» لابنه بكبش سمين، وليس مــن ريب في أن الايمان بصلب المسيح إيمان بفدية قدمها ابن الإنسان أو حمل علــى تقديمها، لكي لايهلك كل من يؤمن به، وتكون له الحياة الأبدية، «إن الإنسان لم يأت ليخدم، ويبذل نفسه فدية عن كثيرين«(مرقــس ١٠، ٤٤»، «لأنــه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لايهلك كل من يؤمن به بــل تكون له الحياة الأبدية،لأنه لم يرسل أبنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلــص العالم» «يوحنا ٣،٢٦»، «بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفــارة

[1] - من الشرف إلى الكرامة عادل العواص ص/ ١٨-١٩/

بالإيمان يدمه لاظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة» «رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٣-٢٣».[1]

فالقرابين عندما تهدد والأموال عندما تنفق، إيماناً بالحصول على الإرتياح المعنوي، وعندما يكون العكس، نستطيع القول أنه حصل الخلل، لأن المادة أصبحت هنا الهدف، فالوسيلة التي كانت تهدر لنيل رضى الغائب الموجود، أصبحت هي الغاية، والغاية هنا، تستغل للحصول على ماكان يهدر كقرابين للتقرب ونيل الغفران من الخالق.

هذا المفهوم تطور نحو الإنحطاط والإنحدار بالإيمان لجعله - الإيمان -وسيلة لتكديس الأموال، من خلال استغلال الضعفاء والشرفاء الذين لايزال صوت الضمير فيهم حياً، انعكاساً لما يؤمنون به من قيم معنوية.

الرسالات السماوية السمحة أتت لمعالجة الواقع الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي فمفهوم المحبة الذي جاء به السيد المسيح عليه السلام، اختصر كل القوانين ولخصها بهذه الكلمة «المحبة» التي تعالج بمضمونها ومفهومها وملتوحي من معانٍ، كل القضايا التي تشكل المجتمع، فالمحبة تعني مساواة النفس بالنفس،خوفاً من العقاب، ومحبة بالثواب، وأملاً بالآخرة.

ومن أحب، يتمنى لغيره مايتمناه لنفسه، والمحبة، تعني مساعدة الآخرين، ورد الظلم والفقر قدر المستطاع، وهذا المفهوم يضع كل القيم المادية تحت الأقدام، وجعلها وسيلة لتحقيق المحبة والأخلاص والوفاء، من خلال السخاء بها لمن احتاج إليها.

---

[1] - من الشرف إلى الكرامة عادل العوا ص/ ٣٤ .

لقد شدد السيد المسيح على المحبة، وهذا مفهوم معنوي، يتناقض والمفهوم المادي.

يقول السيد المسيح: «ماذا ينفع الإنسان أن يربح العالم إذا خسر نفسه» هذا المفهوم واضح في احتقار المادة والتقليل من أهميتها، لأنها تتناقض مع المفهوم المعنوي للحياة، فالمادة كما يشير إليها السيد المسيح، «لاتخلد الإنسان في الدارين، ولاتشفع به، بل بالعكس سيتكون نتائجها كما قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم»الذين يكترون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم«وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:»إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال».

فالمادة ستحرق من تعامل معها كغاية، لأنها إذا تضخمت فسكون مصدرها حراماً وبوسائل غير شريفة، وعلى حساب جوع الآخرين وذلك كما قال الإمام علي كرم الله وجهه «مانام شبعان إلا وكان على حساب جوع الآخر».

حب المال مفهوم مادي، وهذا المفهوم كما قلنا سابقاً يتناقض مع المفهوم المعنوي «للحب» كما جاء به السيد المسيح عليه السلام، ولايلتقيان لأنهما متناقضان في الغاية، فالمال لم يكن في أي ظرف إلا وسيلة للنهوض بالقيم المعنوية والروحية، والقيم المعنوية والأخلاقية والإنسانية إذا طبقت في السلوك اليومي على الأرض، فهي ستكون الوسيلة الوحيدة للوصول إلى رضى الخالق وبالتالي الاستقرار النفسي على الأرض، جاء في القرآن الكريم: «يوم لاينفع مال ولابنون، إلا من أتى الله بقلب سليم».

إن مفهوم الخوف هنا انقلب على مصدره، وأصبح المصدر وسيلة، وربما الحضارة التي فرضت وجودها، وتقدم العلم والتكنلوجيا ساعد على تسطيح الإيمان، بفعل نتائج ماأبدعة العقل من تطور وقفزات في العلم اللذين أخرجا إلى حيز الوجود حضارة مذهلة، نقلت البشرية من حالة الإنغلاق المظلم إلى الإنفتاح المشع الذي حرر البشرية من النظرات الدونية الضيقة، تجاه الظواهر الثابته والمتحركة الموجودة في الأرض وفي السماء.

هذا التطور لم يأت من العدم، ولم يوجد نفسه بنفسه وإنما بشرت به الكتب وأشارت وتنبأت به، وهذا السياق في التقدم من المفروض أن يعمق الشعور بالإيمان، ويرسخه، والتقدم هذا له سلطانه، كما أشار إليه القرآن الكريم وهو العلم، وبين القرآن إن الله يخشى من عباده العلماء لقوله تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور»[1]

وهذا دليل لمسافة السبق التي تنبأ بها القرآن، ودليل واضح لعظمة الرسالات السماوية، لتبقى حيويتها وديمومتها على مر الزمن،حتى لايهتز ويدب الخلل في المسلمات التي آمن بها المخلوق.

المبادلة واضحة، والطرف الرابح فيها والخاسر هو الإنسان، الذي يربح جسمه في مبناه، ويخسر روحه في معناه، وهذا ماأشار إليه السيد المسيح في الإنجيل المقدس.

---

[1] - سورة فاطر - الآية / ٢٨/

المبادلة بحقيقتها وقانونيتها وأصولها، مبادلة المادة والسخاء بهـــا، للربـــح المعنوي الذي يجب أن ينعكس على القيم الإنسانية، من أجل أن تكون طرفـــا المعادلة، كما يجب أن يكون، للوصول إلى الغاية الحقيقية من الشعور بالخوف.

هذا الشعور الذي يلج به مبناه ومعناه كظاهرة متحركة، تواجه ظواهـــر أخرى، تستحق التفكير بها.

فالمادة بمفهومها الماديين يجب أن يكون لها هدفان، هدف قريـــب وآخـــر بعيد، فالهدف القريب والظاهر: للحفاظ على الوجود الآني الحالي، ومـــايفيض عن هذا الهدف، يجب أن يصب في تعميق الهدف البعيد، لنجاة الـــروح مـــن خلال توظيفها لخدمة من يجب خدمته، وماأكثر ذلـــك، بشـــرط أن يكـــون مصدره من جهد الجسم والنفس بالوسائل التي دونتـــها الشـــرائع والقوانـــين والأعراف، وأن لاتنعكس على ماء الحياة لمن اختير مســـاعدته، وأن لايبطـــل المتصدق حسنته هذه بالمن والأذى.

يقول السيد المسيح في ذلك: «فأبوك الذي يراك في الخفـــاء يجزيـــك في العلانية» فالخوف يجب أن يكون هاجسه المعنى، وليس المبنى، فالمبنى المـــادي للظواهر الموجودة في الطبيعة، وماأكثر مظاهرها وتنوعها وغزارتها، التي تفيـــض بها الأرض والسماء، هذه المصادر تفيض عـــن حاجـــة المخلـــوق الإنســـاني والحيواني، وتزيد عن المطلوب، ولكن عندما ينقاد المخلوق للسوء، تلبيه للنفس الأمارّة بذلك، سيميل الإنسان إلى حب الســـيطرة، والأحتكـــار واســـتغلال الآخر، والاستغلال مهما كان بسيطاً لابد، سيقود الآخر إلى زيادتـــه،وهـــذا يكون على حساب من كان عنده شعور بالخوف من الآتي من الزمن الآخـــر،

ولاسبيل إلى تحديده، لأن هذا، هو سر بقاء الجسم ملجوماً عن المعاصي لصيانة الروح من الهلاك.

وإذا خُرق هذا السر، يتغلب الجشع المادي على القيم الأخلاقية، وبالتالي تفسد العلاقات الاجتماعية بين الكل، وهذا يؤدي إلى وجود الخلل في هذه المعادلة، وبالتالي سقوط المعنى الاجتماعي والقيم الروحية، وهذا ينذر بالصراع مابين قوى الشر وقوى الخير، قوى المباني المادية والمباني المعنوية، وهذا يؤدي إلى فساد المجتمع، وتقهقر أصحاب المبادئ الإنسانية، ومفاهيم العدالة والمساواة، وماأكثر ذلك حالياً على وجه الأرض وتحت سطح الشمس.

والتسلح بالمدد المعنوي، لايعني الزهد في الحياة، والابتعاد عن السعي بطلب المادة، بل بالعكس، فلقد حاربت الشرائع التواكل والاعتماد على الآخر، لأن ذلك أن وجد فهذا يعني استغلال الآخر، والاعتماد على مصادر، أنكرتها الفلسفات والمذاهب الدينية والاجتماعية التي وضعت، لضبط العلاقات المادية بين البشر.

والاعتماد على الآخرين يعني السقوط المعنوي، لمن سلك هذا السبيل، وتثبيط عزائم النفس والجسم للعمل بالحلال.

إن السقوط المعنوي للجسم والنفس، هو سقوط لامبرر له، وخلفيته الجهل والأمية القاتلة من جهة، ومن جهة أخرى القدرة عند الآخرين بالتلاعب بمشاعر الناس، وتحويل اهتزازات هذه المشاعر نحو منحى آخر، يستغله من عنده القدرة على التلاعب بالساحة الممغنطة، المشحونة بالخوف من الواجد، والتي لاحدود لها، ولامقياس، ولامكيال، تكيل ما عند أصحاب هذه المشاعر من

المباني المادية، لابعاد شبح الخوف والوهم من المجهول، والراقدة صورته المخيفة والمرعبة في العالم الداخلي للإنسان، خاصة في الظروف التي يصاب بها الإنسان، بالنكبات والأمراض وسوء الطالع.

هنا تكون أرضية الإيمان عند الإنسان قوية، وبالوقت نفسه يكون هاجسه دفع القلق والتوتر النفسي، وتواتر الأفكار المشؤومة، ويميل هنا شعور الإنسان لهدم كل المباني في سبيل الاستقرار المعنوي والنفسي، وتأمين التوازن مابين العالم الخارجي، وعالمه الداخلي، ومأأكثر من يستغل مثل هذه الحالات، من قبل من يطغى على ضميره ووجدانه الجشع الذي لاتفلح نتائجه، وهذه الحالات هنا وهناك، قد تشاع، ويساهم في نشرها، أصحاب المصلحة بذلك، من أجل وشم ضمائر البعض بجدواها، من خلال حادثة لعبت بها الصدف،وربما استجاب الآخر، لتوفر الأرضية التي لاغاية لها سوى العمل الصالح والسلوك الحسن وتقديم الخير، فمن تمسك بالحبال التي أوصى بها الآخر، ومن انحنى لمن تمسك بها، ورَّق شعوره وتداخل بشعور الآخرين، استجاب للطالبين مساعدته، وهنا لابد من أن يتحقق طلب الطالب، وينعكس ذلك علىتوازنه واستقراره.

فالوسيلة التي قدمها ذو الحاجة المعنوية أو المادية، نالت استحساناً وقبولاً في الدارين، هذه الوسيلة، توضعت وتسطحت واستقرت في المكان الذي يجب أن تكون فيه، ومن قدمها لتكون هنا، لاغاية أخرى عنده، سوى أن تكون في محلها، وتكمل عند الآخرين العوز المادي والمعنوي أيضاً، ويستحسن أيضاً وهو

الأفضل أن لايعرف مصدر هذا الخير من أجل أن لايشكل هذا العطاء موقفاً يشعر به المعطوف إليه، أنه مكبل بحالة معنوية، مصدرها عطف الآخر إليه.

والمحسن الحقيقي لايبحث عن المكان الذي آلت إليه نفقاته وحسناته المادية، ولايهمه في ذلك إلا شيء واحد، وهي أن تصل هذه النفقات فعلاً إلى الذي يترقب أمثالها.

فالمحسن الحقيقي عندما يقوم بذلك يكون قد أزاح كابوس الواجب الذي يلح عليه لدفع الضريبة، وهذه الحالة، لاتأتي من فراغ وإنما من طيف معنوي مصدره الغائب الموجود الذي هو مصدر الخوف والقلق، وهالته تحرك آلية معينة في ضمير ووجدان من رآه بالبصر والبصيرة، توعز له بالتحرك قبل فوات الأوان ولابد هنا كما قلنا سابقاً من تقديم النفقات المادية لمن كان في حالة الحاجة، ومن هنا نرى أن مقابلة الشر بالشر، لابد أن نتائجه محكوم عليها سلفاً، والعكس صحيح، فالمقدمات الخيرة، لاتعطي إلا الخير، وهذا قانون لامسته البشرية، وجربته الشعوب ولأجله أرسلت الرسل، وشرعت القوانين.

والعاقل يدركه من خلال التجربة، والملاحظة الميدانية التي يعيشها، كما أن التاريخ في ذاكرته الكثير من الأحاديث عن الذي طغى وبغى وتجبر، وذل وقهر الناس في الحياة، وكيف كانت نهايته، وهذه دروس وعبر، تحتفظ بها الكتب، لتأخذ منها الأجيال الحالية واللاحقة، الموعظة والدروس التي يجب أن لاتنسى.

خلفية الخوف على الفرد والأسرة والمجتمع

الغائب الذي لايُرى، والواجد الغير موجود، والموجود، هـــذه مفـــاهيم معنوية، تشكلت عبر رحلة مضنية طويلة من الزمن، ترسخت بالتدرج منـــذ هبوط آدم إلى يومنا هذا، حتى أصبحت الآن مسلمات لايقبل العقل مناقشـــتها على الأغلب، ولايحاول بها إلا من غلب فكره المادي على الفكر المثالي، وقـــد يكون هذا، نتيجة التوغل في عمق المعادلات الفيزيائية والرياضيات، ومالها مـــن خلفيات ونتائج مادية مذهلة، إلا أن البعض المؤمن بنتائجها، يرجعها إلى قـــدرة خفية، تلعب دوراً كبيراً في تنظيمها.

ولكن لو رصدنا يوميات من حمل بالتسليم هالـــة الموجـــود الواجـــد، اللامحسوس ومن وقع في شبك طيوف هذا المصدر الغير مرئي، لتجلت لنـــا اللوحة الزمنية التي يعيشها من رفع حاجبيه، وجحظت عيناه، وهـــو يحـــدق ويصوب النظر للأفق البعيد، ضمن برهة من الوقت، يتأمل بها الناظر بعد تخاطر الأفكار، وتصوير الغرفة التي من المفروض أن يكافئ بها، لو رصدنا ذلك بدقة، كان يجب أن يكون الآتي كنتيجة حتمية لاتقبل المناقشة:

١- زوال الحدود المادية عند النوع البشري: والمعروف ونحن نعيش علـــى هذه الأرض التي نلامسها، أن جميع المشاكل التي تقع بين الأفراد والجماعـــات،

الصغيرة والكبيرة على سطح الأرض، سببها مادي، وهذا السبب إذا نظرنا إليه نظرة بعيدة عن المادة كم سيبدو لنا، تافهاً وحقيراً، فهو جـــامد لايتحـــرك، لاعقل له ولاغريزة، وهو جثة هامدة، لاروح فيه ولاحياة، يصغـــر الإنســـان عنده، وهو سبب لذله وموته الجسدي والمعنوي، وكم كان هذا أيضاً سـبباً في تشريد الشعوب وموتها وذلها، وتجويفها واحتقارها، ومـــن يكـــون هاجســه الإنحدار نحو المادة، يعيش طول حياته مضطرباً داخليـــاً - داخـــل نفســـه - وخارجياً مع المحيط الذي يلفه، وهذا سيؤدي حتماً إلى ضعـــف الاســـتقرار الروحي، وبالتالي إلى حرق نفسه وجسده لأسباب تافهه، لأنـــه في النهايـــة، لايقبض على شيء، ولايستطيع القبض على شيء ينفعه ويحميه يوم الحســـاب، هكذا علّمنا التاريخ، والكتب السماوية، والواقع الذي عاشته الشعوب القديمة.

فالمادة جامدة أو زائلة، وهي مصدر شر، وأذى، وهي مشـــكلة العـــالم والبشر، وعقدة شريرة في النفس، وهي سبب بلاء البشر بعـــدم الاســـتقرار والعيش المشترك، تحت الشمس لينعم الكل بالخيرات الوافرة على الأرض.

ولو كان العكس، لكانت الحياة هنا وهناك تختلف عن الواقع الحالي الـذي نمارسه، ولو عاش الناس في التسامح، ووضع كل فرد المادة في الدرك الأســـفل وفي الزوايا المهملة من تفكيره،لاختلف نمط العيش على الأرض.

ولو سخر الإنسان خيرات الطبيعة مما تنبته، وممـــا يســـتخرج للعيـــش واستمرار الحياة، لما كان هناك مشكلة تستحق الذكر.

فرحلة الحياة قصيرة، ومعدل الأعمار معروف، وهذا عامل هام، يجب أن، يدفع الإنسان لعدم التفكير بها أكثر من اللازم، وإذا ملك الإنسان الأرض، ماذا

ينفعه طالما لايساهم ذلك في إطالة عمره ساعة واحدة، والمعروف أن الإنسان ليس له مهما ملك، إلا القدر اليسير الذي يساعده على استمرار الحياة، فالفقير والغني مهما كانت الفوارق المادية بينهما، يتساويان في النهاية، بامتلاك أقل من متر مربع، وسيعود مادة نتنة، يحفظ بمادة خوفاً على البيئة من كتلة جسمه المادية، التي همدت وأصبحت نتنة، تفوق بشاعة رائحتها ذلك الذي كان هاجسه في الحياة، القبض على كل شيء ولو تعددت الوسائل والأساليب التي حرمتها الأعراف والقوانين .

وهنا نقول: المادة التي تبحث عن مثيلاتها هي من جنسها، والمادة لم تكن في أي ظرف من الظروف، محمودة، كفاية، بل هي وسيلة، لخدمة الإنسان، وخدمة بني جنسه، ومن طغى عنده الولع المادي، أصبح مجرداً من القيم التي تميزه عن سائر المخلوقات.

الحدود المصطنعة هنا وهناك، هي لدوافع مادية، لحب التملك، والسيطرة، أينما كانت هذه الحدود على سطح الأرض.

لو تصورنا أن هذه الحدود غير موجودة، ولاتأخذ حيزاً في تفكير الناس ما الذي كان سائداً على الأرض؟.. نقول إن ماكان سيسود هو، زوال القيم المادية وسيطرت القيم الأخلاقية، كالتسامح، وحب الآخرين وعدم وجود الطمع والغيرة، والحسد والاعتداء على الآخر، وسوف يكون كل البشر خلية واحدة كخلية النحل، يتعاون الكل لمصلحة الكل.

إن الإنسان الذي يعيش في دائرة الراصد عن بعد، لايلهث وراء المادة حباً بالتملك والاحتكار، وإذا تحرك نحو ذلك، فلغاية حب البقاء واستمرار النوع،

وهو لاينظر لواقعه الحالي، ولايكون هاجسه خلق حجم علـــى الأرض- بـــل هاجسه ومايشغل شعوره، هو أن يكون أداة ووسيلة لبني جنسه، لتقديم الخـير، وتوفير وسائل الإطمئنان والراحة والحياة الكريمة إلى الآخرين.

السيد المسيح يقول عليه السلام: «ماذا لو ربح الإنسان العـــالم وخسـر نفسه».

وهذا يعني أنه مهما توسعت دائرة الإنسان وسيطرته على الأرض، فـــلا تستطيع هذه أن تحمي هذا الإنسان من العقاب يوم الحساب، ولابد مـــن أن يكون في النهاية خاسراً كل شيء، فالقيم المادية حذّر منها السيد المسيح عليـه السلام، لأنها ليست وسيلة شريفة لنجاة صاحبها، ومفهوم المحبة أيضاً يتنـاقض والقيم المادية، فمن ملك ناصية المحبة وطبقها إحساساً وشعوراً في الشـــخصية، وعمل بها، فحتماً ستكون النتائج ملموسة تشمل كل فرد وأسرة ومجتمع، وإذا كان العكس، نصل إلى ما يعتقده أولاد الأفاعي، وغريزتهم التي تبرر كل وسيلة للوصول إلى السيطرة على كل شيء، لأن المبدأ الذي يؤمنون به هو احتقـــار كل الجنس البشري، بغض النظر عن الوسائل التي يستخدمونها لذلك.

إن الخوف من خلفية المبادئ السامية، تجعل الإنسان، إنساناً، يتطلـــع إلى الآخر بالمساواة مع نفسه، وهذا يجعله لايؤمن بالحدود، ويفتح صدره لآفـــاق واسعة، من العيش مع بني جنسه بمحبة، وفناء الجسد لتقديم كل الذي يســـهل سبل الحياة الكريمة للآخرين.

الفلسفات المثالية، والتي تؤمن بالقيم الروحية والمعنويـــة، كمـــا أراهـــا لاتتناقض في الغاية مع الفلسفات المادية، ولاسيما الفلسفة المادية التي قدمـــها

كارل ماركس إلى البشرية، فالفلسفة المادية الماركسية تنطلق من المادة كأساس، لتحقيق العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع وتوزيع كل الدخل المادي بعدالة بين أبناء المجتمع حتى لايكون هناك طبقات، تطغي طبقة على أخرى، والقيمة وفضل القيمة هذه المعادلة البسيطة نظرياً تساوي في نتائجها، نتائج الفلسفات الروحية التي قدمها الرسل إلى البشر ولو اختلفت الوسائل في التطبيق، يقول كارل ماركس :«إن إخوة البشر ليست كلمة فارغة في أفواههم، بل هي حقيقة، وإن وجوههم التي خشنت بالعمل، تبث نبلاً إنسانياً» [1]

إن الفلسفة المادية تؤكد على العمل، فالأجر مواز للجهد المبذول، كما أن الفلسفات الروحية لاتشجع على الزهد والتوكل، بل تحض على العمل، إن مفهوم المحبة يحتاج إلى كتب لشرحه، لأن الانسان الذي يحب يعني تفضيل كل الناس على نفسه، ويتمنى للأخرين ما يتمناه لنفسه، والناس عنده سواسية كأسنان المشط.

٢ـ المشاعية في كل شيء: الارتباط المعنوي بالواجد، والشعور الداخلي المرتبط بالهالة المخيفة التي تراقب كل حركة، وكل تصرف، هذه الهالة التي تشكلت وترسخت في ضمير وشعور الانسان، ليس لها سلبيات على الواقع، لاتعكس شراً لأحد، بل هذه القناعة التي تشكلت تنسجم بالشكل والمضمون مع ماقاله السيد المسيح: «باركو لاعينكم...». وهذا يدل على أن الانسان، حقوقه مصانة، وإذا اعتدى عليه وحرم من حقوقه وسلبت أمواله وحريته، فلا

[1] -من الشرف إلى الكرامة . د. عادل العوا -ص/ ٢٨٩/ .

بد من أن يتم العقاب من قبل الغائب الذي لايرى فإذا آمن المخلــوق بهــذه المفاهيم وهذه القيم، فإن المشاكل المادية والمعنوية ستكون محلولة مـــع كـــل القضايا التي تواجه الفرد في الحياة، وهذا يعني أن كل شيء ســيعتبره الآخــر مشتركاً ولكل فرد الحق في استخدامه واستعماله، وإذا طبق هذا المفهوم علــى كل شيء وخاصة المادي منه، فما المشكلة بذلك؟.

هل تقوم هناك نزاعات أو مشاجرات بين زيد أو عمر، هل تقام الحــروب والاحتلالات بين هذه الدول وتلك الأخرى؟. والكل يعلم أن خيرات الكــرة الأرضية تفوق حاجة عدد السكان الموجودين عليها.

الحيوانات التي توجد على الأرض والتي تعمل بالغريزة، تنتقل من مكـــان إلى آخر طلباً للعيش والاستمرار في الحياة، ويفوق عددهـــا عـــدد البشـــر، ولاتوجد هناك حواجز، وبالغريزة والفطرة، لاتوجد تعقيدات في تناول الماء من هذا النهر أو ذاك، أو تناول الأعشاب من هذه البقعة أو تلك، ولاتوجد هنــاك جوازات سفر، وهويات وتضاريس وحدود، وقد تتكاثر في أمـــاكن عديـــدة وبعيدة، وتتزاوج وكأن شيئاً لم يكن.

الارتباط بالغائب كيف يؤذي النفس والجسم، والفرد والجماعة، ألاتوجد فرص عمل لجميع أفراد بني البشر؟ وإذا قام الفرد بالعمل وكـــان مهووســاً بالغائب. ألا يسخر للعمل ضميره ووجدانه بالعمل الخالي من الغش والســـوء والفساد.؟.

حتماً سيتفانى بالعمل الصالح وسيكون عنده دافع لايمسك، لدفع العمـــل الذي من شأنه تقديم كل من شأنه إراحة نفسه وغيره.

٣- التسامح: يقول السيد المسيح «إن أخطأ إليك أخوك فوبخه، وإن تاب فاغفرله، وإن أخطأ إليك سبعاً في اليوم، وتاب إليك سبعاً في اليوم، فاقبل توبته وأغفرله»

منذ ألفي عام نادى بهذا المفهوم السيد المسيح عليه السلام، وهل كانت الحاجة إلى هذا المفهوم أشد الحاحاً إلى تطبيقه، أكثر من وقتنا الحالي، أظن أن الجواب لا، للأسباب التالية:

١- لم يكن عدد المخلوقات البشرية بالحجم الذي نحن به اليوم، حيث كانت البشرية عبارة عن تجمعات صغيرة تعيش على ضفاف الأنهار، أو في المرتفعات والكهوف التي تقيها شر المخلوقات المفترسة، ولم يكن التواصل والتماس مع الآخرين، كما يوجد اليوم، ولم يكن بالحجم الذي يوجد عليه اليوم، ولم تكن الأطماع في النفوس كما توجد الآن، فالخيرات المادية كانت مشاعية، ولم يكن يوجد أطماع بهذه المنطقة أو تلك لأن الإنسان كان هاجسه الحصول على مصدر يقيه شر الموت، ولم تكن هناك وسائل من خلالها يتمسك الإنسان بهذه المساحة من الأرض أو بهذا الجبل أو ذاك النهر أو هذا الحقل ويدعي ملكيته له، وبالرغم من سطحية المفهوم الديني عند البعض، ولو كان هناك في بلاد النيل والرافدين مفهوم يدعي تطوره إلى حد ما، وبدايات تشكيل عقيدة التوحيد، وبالرغم من الهجرات العربية، فقد كانت كيفية ولاتنظم بشكل دقيق، والأرجح أنها كانت غريزية بدافع البحث عن مصادر الطعام والشراب. بالرغم من ذلك أتى السيد المسيح واختصر رسالته للنوع البشري آنذاك «بالمحبة» حيث اعتبر هذا المفهوم العلاج الأنجح والقانون الأفضل لجميع

البشر على التآلف والمودة لتشكيل الأنا الجمعي البعيد عن الأذى وضرر الآخرين.

منذ ألفي عام، عندما لم تكن الأمراض المذهبية والمادية قد طبقت على الواقع المعاش، خرج عيسى المسيح عليه السلام ونادى بالمحبة، وكم نحن حالياً في حاجة إلى الفي عيسى، لتستقيم الأمور كما كانت منذ ألفي عام.

حالياً لايمر عام إلا ويسقط من الناس مايعادل عدد سكان الأرض بعهد السيد- السيد المسيح - نتيجة الكره وحب الأذى والسيطرة على كل المخلوقات البشرية وإذلالها.

وهناك صرخة من الإمام علي كرم الله وجهه بعد صرخة السيد المسيح حول الخطيئة،والتي لاينجو منها أحد، وحول عدم معاملة الإنسان على أسس الدين والمذهب حيث قال الإمام علي كرم الله وجهه وهو يخاطب عامله الذي كلفه والياً على مصر حيث خاطبه قائلاً: «لك في مصر أخوة في الدين ونظراء لك في القلب».

حيث أعتبر الطوائف الأخرى غير المسلمة بمكانة أقرب من القلب إلى القلب، وهذا يفهم منه التساوي بين جميع أفراد الناس، وليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، والناس سواسية كأسنان المشط كما دعا إلى ذلك خاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وعندما قال السيد المسيح: «إن أخطأ إليك أخوك فوبخه» وهذا التوبيخ ومضمونه دليل على تساوي الناس، وقرب الإنسان إلى الإنسان، حيث متى

أحب الإنسان أخيه الإنسان، انصهر قلب هذا بذاك، وبذلك تنعدم المسافات المادية، ويصبح هذا وذاك في روح واحدة، وكم هو جميل أن يتوب الإنسان إذا اخطأ، ويعترف بالخطأ، وماأجمل الآخر أن يفتح ثغره لذاك، لمراجعة ضميره ووجدانه ليضع حداً لسلوكه الذي أخطأ به، حيث تقبل التوبة ويجب أن تقبل ولو تكررت هذه سبع مرات في اليوم، فالمرونة مطلوبة، لأنه إذا لم تكن هكذا نصل إلى قول الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً

صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه

فالمرونة مطلوبة، خاصة في الظروف التي تكون سبباً لقساوة الإنسان وضميره، فالصبر والجلد وقبول التوبة والمغفرة شدد عليها السيد المسيح، لأن عصره كان يتمتع بالقساوة وعدم الشفقة وانعدام الرحمة لأن أولاد الأفاعي، شذاذ الآفاق وعنصريتهم التي فطروا عليها دعوا إلى حرق كل المخلوقات حتى النباتات من أجل سيطرهم على كل شيء وقد توضح ذلك عدما صلبوا السيد المسيح عليه السلام لكي يتخلصوا من هذا النبي الذي دعا إلى «المحبة»وهذه الدعوة أتت إنعكاساً ورداً لأولاد الأفاعي الذين طغوا وحاولوا قتل البشر لتتم سيطرهم على الأرض ومن عليها .

عندما قال السيد المسيح «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك اليسار» من طبق هذا الشعار وهذا المبدأ وصل إلى قمة الكمال الأخلاقي، فهذا التصرف يعلم الآخر مالم يتعلمه، والإنسان أي إنسان، لابد أنه يتمتع بوجود

ضمير ووجدان، وعندما يتصرف الإنسان مع أخيه الإنسان هكذا، لابد من وخز الضمير وبالتالي ينعكس السلوك من الأسوأ إلى الأحسن والأفضل.

إن الدعوة إلى الإنحناء منذ ألفي عام جديرة بالبحث، وبهذا المعنى يقول الباحث ندرة يازجي في كتابه «وحدة الفكر الإنساني» «إن المحبة مبدأ يتعالى على كل مبدأ آخر، لأنها شريعة الوجود، ولما كان المطلق هو المحبة يجمع الكون كله فيه، لذلك تحيا الأشياء كلها، بعضها مع بعض في سكينة مطلقة، فالمحبة هي الجاذبية في لغة العلم، وهي جاذبية الخلية للخلية، والذرة للذرة، والجوهر للجوهر والنوع للنوع، والإنسان للإنسان، والكواكب لبعضها - فهي إذن تماسك الوجود وتناغمه، بعضه مع بعض في كلٍ متحد، ولولا هذا الملاط، ملاط المحبة - الجاذبية- لتنافرت العناصر، وانفرط عقد الكون والوجود، لذا تجذب الأشياء والموجودات كلها بعضها لإلى بعض في المطلق - المحبة - الجاذبية.

والمحبة التي هي التضحية بالذات، هي تحقيق الإنسان لكيانه، وتعني هذه التضحية، إن الإنسان الذي يرى نفسه في الآخرين، يتحد فيهم ويكون واحداً معهم، وعندما يضحي فإنه يضحي من أجل الجميع، إذ يحبهم، يضحي باسم الإنسانية جمعاء، لكي يتم الخلاص لها، من خلال الإنسان الواحد الذي يمثلها خير تمثيل، إذ يرى الإنسانية كلها فيه، وأعظم تضحية إنسانية هي محبة الإنسان للإنسان»[1]

[1] -وحدة الفكر الإنساني - ندرة يازجي -ص/ ١٢٨/

هذه المبادئ أطلقت، للغايات التي كانت البشرية بحاجة لها، وهذه المبادئ بالرغم من ضعف الوسائل وندرتها، لتوصيلها إلى عامة الشعب كانت بدائية إلا أنها كانت صرخة مدوية، وأشغلت الناس كل الناس، فترسخت هنا، وحوربت هناك، فمن تقبلها وأحتضنها وأيدها ودعا إليها وآمن بها، وساعد لنشرها، لأنها كانت الدواء الناجح، لتقليص الشر المادي، وانتصار مبدأ الخير على كل شر، من أجل تحقيق إنسانية الإنسان، ليعيش البشر في جو ملجوم بالقيم النازلة من السماء والتي لها قدسيتها وهيبتها، والتي تشكل مصدر خوف، ليكون هذا الخوف رادعاً لضمير الإنسان ووجدانه للسير في الطريق السليمة الصحيحة على الأرض.

ومن حارب هذه المبادئ، فلمصلحة مادية تتناقض والمبادئ الروحية فعبر الزمن ومنذ آدم مروراً بالعبرة التي جرت بين هابيل وقابيل، ترسخت الحدود بين التراع المادي والروحي، بين الخير والشر، إلى يومنا هذا لكن وسائل توصيل المعلومات، تطورت كثيراً في هذه الأيام، عن الماضي فالذي لايلمس، ويذاق ويطابق الأدراك العقلي من خلال منعكسات الحواس للعقل، التي تشكلت عبر رحلة الإنسان القصيرة، لايؤمن بها، وبالرغم من ذلك نلاحظ كثرة الملفقين مابين هذا وذاك، وأغلب هؤلاء من المنافقين، الذين يظهرون شيئاً، ويكنون في الباطن أشياء أخرى، وهذا النفاق خلفيته القيم المادية التي هي هاجس من تظاهر بتطرفه للقيم المثالية، وهذا النوع وهو الأخطر، يحاول تسخير الثقافة المثالية التي تمكّن منها لتطغى على ذهن الآخر الأضعف، بالإيحاء الباهر الناتج عن قدرة هذا المثالي، بشحن الآخر بما يبطنه شعوره من قيم، وهو

بالحقيقة طيف كاذب، يستخدم هذا الأسلوب، ليمرر بطريقة ذكية مايخفيـــه، من حب امتلاك كل شيء، وهذا لن يتم إلا على حساب الآخر.

مصادر الخير

خلق الله سبحانه وتعالى الحواس الخمس التي تستطلع وتعمل في العالم الخارجي للإنسان وهذه الحواس تسيطر بطيوفها على الأرض، وهي المسؤولة عن الخير والشر، يوجهها العقل، والإدراك العقلي، ويأمرها بالتنفيذ، إما لمسار الخير، أو لمسار الشر، وفي كل الأحوال الحواس هي المسؤولة عن ترجمة الإيعاز الصادر عن الإدراك العقلي، وإخراجه كفعل منظور وملموس ومنعكس على الواقع والمحيط الذي هو فيه، فأي خير أو شر، منبعه واحد، ومصدره الشعور، وهو يحتاج إلى إشارات، لاتُرى، تنسل حسب الأنا وهواه، إلى الشعور ليأمر الحواس برد الفعل، في المحيط المراد أن تكون ساحته فيه.

والحواس خمسة، حاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة السمع، وحاسة الذوق، وحاسة اللمس.

هذه الحواس تتألف وتعمل بعلاقة متضامنه، تعكس باطن الإنسان، إلى الظاهرة المراد معالجتها ودراستها، لأخذ الموقف منها، سلباً أو إيجاباً، وذلك تبعاً للمثل الذي يقول: «كل إناء ينضح بالذي فيه».

فإذا درسنا هذه الحواس، وعملها، نلمس أهمية هذه الحواس، ولو إننا نتجاهل قيمتها، ولاندرك أهميتها إلاعند فقدان إحداها، فالحواس الخمس، هي

الإنسان بذاته، والإنسان الذي يملك فن ترويض هذه الحواس بالعالم الخارجي نقول عنه أنه إنسان استطاع أن يتأقلم بالمحيط الذي يلفه إحساساً وشعوراً.

والحواس تتكامل مع بعضها البعض، لتجعل من هذا المخلوق مخلوقاً يتميز بصفاته عن بقية المخلوقات، وأهم هذه الحواس هي حاسة البصر.

١- **حاسة البصر**: نعمة البصر، لاتقايض بنعمة أخرى، إلا بالمساومة على استمرار الحياة، والبصر هو حياة الفرد ووجوده تحت الشمس، من لابصر له، لابصيرة له، إلامن خلال حاسة السمع، التي تتلقى المفاهيم من أصوات أفواه الآخرين، وبكل الأحوال فإن الصورة المكوّنة في الخيال عند البصر، تختلف عن الصورة التي قبض عليها بمشاركة الحواس كلها، إن فاقد الصورة عند فاقد البصر، كالصورة عند الآخرين عن الواجد الغير موجود، وربما كان الإيمان والشعور بالخوف، عند فاقد حاسة البصر، أشد من الآخرين، لأسباب داخلية في ذاته.

إن حاسة البصر، نعمة من نعم الله، وهبها الله للإنسان، ليتمتع بالمخلوقات ذات الألوان المتعددة، وهذه الحواس جميل بنا أن نوجهها إلى ملامسة الخير، وعدم تقديم الأذى للآخرين بها.

وهنا نسأل، هل يستخدم الإنسان هذه الحاسة للخير وسعادة الناس..؟

تصور أن الصنف البشري خلق كبعض أصناف الحيوانات، محروم من نعمة البصر، في هذه الحالة ماذا تقول عن سلوك الإنسان؟ البصر نعمة الله على الإنسان- إذا أردت أن تعرف نعمة الله عليك فاغمض عينيك، حيث لولا هذه النعمة لكان هناك اختلاف جذري على مجمل جوانب الحياة على سطح الكرة

الأرضية، وهذا التصور، وهذه الفرضية، البعض يستهجنها، ولكن، لو نظرنا إلى الأفعى التي لاتسمع، وليس لها أرجل ويدان، والسمك الذي إذا خرج من الماء، انعدمت حياته، والخلد الذي يعيش في أدغال صنعها بنفسه تحت وجه الأرض، ولايرى، ولكن حاسة الشم والسمع عنده قويتان، وأمثله كثيرة.

فالإنسان الفاقد حاسة الرؤيا، هل تتولد عنده، وتتوطد في شعوره وإدراكه، المفاهيم الموجودة نفسها في الإنسان، المتمتع بالرؤيا.؟.

طبعاً سيكون الفارق كبيراً جداً وستنقلب المفاهيم ولاتتقارب.

فالطمع، والجشع والحسد، وحب الإعتداء، والحرام، وحب الأذى، وكل الصفات السيئة، ستبتعد عنه، ولايعرف عنها شيئاً، إلا من خلال حاسة السمع، التي تلتقط هذه المساوئ من خلال ما يصدره الآخر من أصوات تعكس نتانة ضميره ووجدانه، وهذه الصفات السيئة، كانت قد ترسخت من حاسة النظر التي عكست ملاحظاتها ومشاهداتها بالآلية التي تعمل بها، مرسلة هذه الصور إلى الإدراك العقلي لتصبح مسلمات ومفاهيم.

فالمصدر الأساسي لهذه المفاهيم هو حاسة البصر التي ساعدت وساهمت، وكانت السبب الرئيسي والهام، في تشكيل المفاهيم الشريرة في ذات الإنسان.

هذه الحاسة أنعم الله بها على المخلوقات لتستفيد منها وتفيد بها أيضاً الآخرين.

فالله لم يخلق الحواس، لاستخدامها في أذى النفس، والآخر.

وكم جميل أن تكون هذه النعمة مصدر نعمة، للآخر، من الآخر، وكما وهبها الله للإنسان، لكي يتمتع بها، وجب عليه أن يستخدمها في الخير وتقديم كل ماهو من شأنه تقديم الراحة والإطمئنان.

أما أن يسخرها في رصد حركات الآخرين، وتصويب سهامه، وبندقياته وآلته الحربية لقتل الآخر، وسرقة الآخر واغتصاب الآخر، فهذا التصرف لايحمد عقباه.

من هنا نقول: الإنسان شرير، بسوء استخدامه حواسه، وخيِّر عندما يقيِّد حواسه للعمل الصالح، وكل حاسة تقود صاحبها إمّا إلى المزالق الشريرة، أو إلى الخير والعدالة. حاسة البصر توحي للناظر إليها، مايكنه العالم الداخلي للإنسان، يسقط منها إشعاعات للآخر، هذه الإشعاعات تترجم من الآخر شراً، أو خيراً، سعادة أوكآبة، تفاؤلاً، أو تشاؤماً، سلباً أو إيجابياً، حياة أو موتاً، عداوة، أو صداقة، إقداماً أو احجاماً، نجاحاً أو رسوباً، إطمأناناً أو استنفاراً، ترحيباً أو تصغيراً، وهي المسؤولة عن الحروب والقتل والتدمير، فهي التي تستطلع الآخر، ومن خلال هذا الاستطلاع، يبني الإدراك العقلي الفرضيات والنتائج وبناء على ذلك، تسفك الدماء، وتدمر البنية التحتية الاقتصادية للشعوب، وتأتي الويلات.

ومن هذه العدسة التي ترصد كل شيء، ومن خلالها يخزن العقل في الشعور كل الظواهر المتحركة والجامدة الموجودة على سطح الأرض، وعليها يبني القضاء حكم الأعدام والموت للآخر، فالشاهد يدلي بمعلوماته عن الذي رآه بحاسة البصر، فإذا كانت التربية الأسروية في الأصل سيئة وشريرة، وإذا

كانت الاستعدادات الوراثية السيئة موجودة، فهنا الكارثــة، الــتي ســتلحق بالآخرين،- خاصة إذا كانت ميول الإنسان بالفطرة شريرة، وعنــده القيــم المادية فوق القيم الروحية.

إن الله سبحانه وتعالى وهب للإنسان حاسة البصر، ليتقي بها شر الظواهـر المتحركة وثعابين الحياة، فلماذا يستخدم هذه الحاسة لأذى الآخرين ؟.

وإذا كانت هذه الحاسة تمنح صاحبها عملية التوازن والاستقرار والأمــان والخير والتفتيش عن الرزق، لاستمرار حياته، فلماذا لايسخرها لخدمة الآخرين ومساعدتهم في العيش المشترك.

إن مصادر الخوف المادية والمعنوية، تبنى على حاســة البصــر، فــإذا لم يستخدم الإنسان هذه الحاسة للوظيفة التي خلقت من أجلها، تحكــم علــى صاحبها، بالنفاق والتلون والكذب على الواجد والموجود.

الغريب والعجيب في يوميات الإنسان التي نلاحظها، إن الغالبية العظمــى تنقاد بالدوافع المادية، وتطغى هذه على كل القيم الإنسانية، والندرة القليلــة - ومأأقلها - تعكس خصب الأصل، وما يجب أن يعكس من خـــلال حاســة البصر، وماتعكسه من اسقاطاتها على العالم الداخلي للإنسان، وخاصــة قيــم الخير.

نعم، الإنسان البدائي كان يرى كل شيء جميلاً، لأن التوليــــف كـــان معدوماً، وعملية تخزين منعكسات الظواهر عبر حاسة البصر، لم يكن إلا للقيم الخيرة، فالبساطة والسطحية، والخوف من المجهول، كـــانت كلــها عوامــل ساعدت على جعل الإنسان يخاف من الغير مرئي، وهكذا رأينا قــوى الشــر

كانت ضعيفة في شعور الإنسان البدائي وقوى الخير هي الأقوى وهذا مالمسناه سابقاً، فالبدائي تعامل مع بصره لخدمته، وخدمة الآخر، وتبسيط الحياة، ليعيش كل البشر في هدوء واستقرار وسعادة.

ولأهمية هذه الحاسة، وكل الحواس الأخرى، أصدرت التشريعات لحمايتها وحفظها، فشريعة حمورابي منذ ماقبل الميلاد كانت تنص على خلع عين المعتدي، إذا كان مسبباً بخلع عين الآخر، ذلك لأهمية حاسة البصر في حياة الإنسان.

وحاسة البصر - العين - خلقها الله لتحرس المخلوق من عاديات الزمن وصروف الدهر ونوائبه، خاصة إذا كان مصدر الأذى من الظواهر المتحركة، وهنا جسد الخالق وظيفة العين بحراسة الذات والآخر.

كل شيء في الطبيعة جميل، حتى الظواهر الجامدة، وهذه الظواهر تعطيك مدداً معنوياً، وفسحة كبيرة لاحدود لها، من الأمل والمستقبل المشرق، ومفهوم السعادة، يأتي من هذه الفسحة التأملية في الخالق، ومابسطه في هذا الكون المعقد والعجيب، والإنسان في البدايات الأولى لظهوره على الأرض، عبد هذه المظاهر وقدسها، وقدم لها القرابين اعترافاً منه بما تقدمه من خير وسعادة، فبادلها الحب بالحب، والخير بالخير، ونظر إليها كمظاهر خير وسعادة، فعاش الإنسان، يستطلع هذه الظواهر بحاسة البصر، فكشف خيرها، فاستغل هذا الخير لصالحه، كما أنه كشف شر بعض الظواهر، فعبدها أيضاً، ليتقي شرها، ويعيش في أمان منها، هذا في الوقت الذي كانت فيه الأمية الظلامية مخيمة على كل شيء، ولم تكن وسائل القراءة والكتابة والتدوين متوفرة، فحاسة البصر،

استخدمها ذلك الإنسان للخير وتقديم الخير، وترسيخ مفـــاهيم الخـــير، لأن حاسته لم تكن ترى إلا الجميل في هذا الكون، ومن هنا نتذكر القول المـــأثور الذي يقول «كن جميلاً تر الوجود جميلا».

ومن هنا أصبحت العين هالة معنوية على كل شيء، فإذا أردتُ أن أجـزم على صحة شيء وأن أعطيه مبنى ومعنى متميزاً، أقول نعم - عينه - ومن هنـا ما استخدمه بعض الأدباء على بعض مؤلفاتهم القيّمة، للدلالة علـى أهميتـها فسموا مثلاً «كتاب العين» ليشيروا إلى أن هذا الكتاب - العين- بين الكتـب هو بمنزلة العين من جسم الإنسان والعيون الجميلة في الجسم، كالقمر في ليلـة مقمرة، وهي تفتن الخيال من الشهب التي تصدر عن المنظور إلى الناظر، وكـم حلق الأدباء وأبدعوا بوصف العيون التي نفذت طيوفها إلى أعماق النفـس في الجسم الآخر، وكم حلق خيال الشاعر واخصب، وارتفع وانتشى إلى العـالم الآخر ليعيش لحظات من تخاطر الأفكار، يناجي بها من كان مصدراً للخـوف، ليعتصم تعظيماً لما أوجد وخلق.

ينابيع الحياة - سميت بالعيون - لأن حياة الإنسان والحيـوان والنبـات مرتبط بوجودها، فهي مصدر خير، ومن أجل هذا الخير شبهت الينابيع الـتي تتدفق بالمياه العذبة - بالعيون -

فالعين هي التي تجلب الخير، وتدل الإنسان عليه، وهي التي تقدم السـعادة والسرور والأمل المشرق، من خلال ماتعكسه من العالم الخارجي إلى ضمـير ووجدان الإنسان.

وبالعين نستطلع صفحات التاريخ والكتب، ومادوّنه القدماء والرسل، لتقدم لنا مادة معرفية ومفاهيم وأدراكات عن الماضي، من أجل أن يعيش الإنسان حياة الآخرين في لحظته الراهنة.

لنتصور الإنسان لايرى، ماذا نستطيع أن نصنفه في هذا الزمن، زمن المعلوماتية، حيث بالتأكيد أن وسائل التلقين لاتجدي نفعاً، ومن هنا ندرك قيمة هذه الحاسة.

إن الحروب والويلات والدمار وحكم الإعدام وكل مامن شأنه تقديم الأذى والضرر للإنسان والحيوان والنبات ومظاهر الطبيعة، والزندقة والنفاق وتقديم أشكال من الشر، نقول: إن المسؤول الأول عن كل هذا الشر هو حاسة البصر، التي تجمّع وتستطلع، وتمسح وتصور الواقع الملموس، ثم تعكسه بصورة مفاهيم في الإدراك العقلي، ومن هنا يكمن الخطر كل الخطر، فالمحاكمة العقلية تستند إلى تقارير ومعلومات العين والويل ثم الويل، إذا كان مبنى العين متأثراً بعوامل، أرضيتها شريرة. فالعين وسيلة وأداة لكي تميز بين الأسود والأبيض، بين الخير والشر، بين القبيح والجميل، وقد تستطلع بصيرة الإنسان من خلال بصره، وكشف نفاق الآخر ودجله، لأن الملفق والكاذب يكون متناقضاً مابين باطنه وظاهره، وهنا يظهر، بالملامح التي حددها علم النفس التطبيقي، ويكون أشد ظهوراً بالذي لم يتعود على الكذب.

والعيون تخلط المشاعر وتوحدها، وهي المسؤولة عن صلابة الصف وتفعيله وجمع الأنا، لتشكيل الأنا الجمعي في المجتمعات، فالعين هي المحرض الرئيسي للآخر،وبالعكس، لخلق متتاليات من المواقف الحسية، تتناسب طرداً مع هيبة

وقيمة الظاهرة الساقطة على الحواس، سواء أكانت هذه الظاهرة لهــا طــابع مأساوي أو العكس، وفي كلا الحالتين، تعبّر العين عن الموقف بــالطرق الــتي تعودنا عليها.

ومن المعروف، وهذا نلمسه في الظاهرة المأساوية، كيف تعكــس العــين ضعف الإنسان وعدم قدرته على تلفيق الموقف الطارئ، حيث يصل الإنســان في بعض هذه المواقف إلى إنسان مشلول الإرادة، والعقل حيث تتعطــل كــل المفاهيم التي اكتسبها، عبر رحلته في الحياة، وتتبلد هــذه المفــاهيم ويصبــح الإنسان أملس من كل شيء، إلا غريزته التي يتعامل بها مع الواقع المفــروض، وفي هذه الحالة، الحالة المأساوية قد يتدفق خصب الأصل، من خلال التربيــة، وماااكتسبه الإنسان منذ طفولته في الأسرة والمدرسة والمجتمع، ومــن خــلال التربية، قد يرجع الإنسان كل شيء إلى ماوراء الطبيعة، ويستسلم مكثراً مــن حمد الله وشكره على هذا الواقع الذي حصل، طالباً من الواجد، الاكتفاء مــن هذا، وعدم حصول الأعظم.

وكم كانت الحواس رائعة في التعبير عن تلك الظاهرة وغيرها من الظواهـر لو تأملنا قول الشاعر:

يــداه على التراب ومقلتاه　　　معلقتــان في الأفــق البعيد

هنا يظهر الشاعر مصدر الخوف المادي والمعنوي، فالتربة وتربيت الفــلاح باللمس عليها، له رجاء بذلك وقصد، والمصدر المعنوي الذي لايرى، وتحديــق وتحيظ العين بالمدى الذي ليس له مدى، وإرسالها البروق لخرق هذا المــدى، قصداً وهدفاً لعمق هذا المدى، واستجداءً من الغيب، لتتدلى من كبد السـماء،

طيوف تداعب من تربص بمثل هذه اللحظات، ليكون حسن الطالع على العين، والحبيس المتورم المنتظر لحظة العبور فيه الشفاء بشقيه المادي والمعنوي.

وفي هذه المواقف، يستسلم الإنسان، ويرجع بالذاكرة إلى الوراء، حيث يشعر الإنسان بالرعب والخوف من المصدر المعنوي.

العين ومصادر الرعب المادية

إن مصادر الرعب المادية والمعنوية، يدركها العقل، وبالرغم من ذلك، فإن العاطفة تتغلب أحياناً على العقل، وذلك انعكاساً لمصلحة الآخر، المادية أو المعنوية، وهذا الموقف وذاك، كما قلنا سابقاً يبنى على رؤية البصر، وويل من البصر على جانب كبير من الشر، إذا تعامت العين، ونافق الضمير والوجدان، وكم أهلكت أمم، وشردت شعوب وفحت حتى الموت ملايين الأطفال، وهي تشهق، وتخاطب الآخر، رأفة بالروح التي تنسل من بين الخلايا والضلوع، لرشف ملعقة من الطعام أو الشراب، ليستمر نبض الحياة، منعاً لإنقطاع الجذور وعدم وقف الحياة عند أناه.

فالعين المتأثرة بالواقع المادي، والمظاهر المادية وأبعادها على جشع الإنسان،كم هي مخيفة ومصدر خوف على الآخر، وكما قلنا أن ويلات الشعوب منها، وفيها تبلى، وبها النقمة على الجنس البشري، وإنسانية الإنسان كإنسان على الإنسان، إنعكاساً لمصدر الخوف، وإيحاءً لها بالرأفة عليه، وعندما قيل الجنة تحت أقدام الأمهات، رأفة للدمعة التي تنسكب وتنحني لتطوق بها المخلوق الضعيف التي تحتضنه وترعاه، ليكون الساعد الذي به، وبأمثاله نبني الحضارات، لتنعم بها الشعوب وتستقر، فالإنسانية تعبر بمعية الشهب التي يخرج

من بؤبؤ العين إلى الآخر، وعندما تكون هذه الشهب، مصدره من الشعور بالخوف من المدى، الذي ليس له قرار، لابد سيكون وقعها على النفس وعمق الآخر، الطمأنينة، وخلق فسحة تأملية من الراحة على الجسم والروح، وملامسة الإحساس بالإحساس، والشعور بالشعور، ليتكون الأنا الجمعي، للشعور بالوجود تحت الشمس، تمهيداً إلى الوصول، للغاية الكلية التي يسعى إليها الفلاسفة، وأصحاب المذاهب الكبرى، وهي سعادة الإنسان، وتخليصه من مصادر الخوف المادية التي تعبث بوجوده على الأرض.

كما قلنا مصادر الرعب، معنوي ومادي، وأما المصدر المعنوي فإنه بدرك بالعقل، وليس بالحواس، ولوكان للحواس الدور الأول في تشكيل هذا المفهوم، في الضمير والوجدان، من خلال ماتعكسه الحواس من ردات الفعل الظاهرة المرئية المرعبة والمخيفة، لجهل الناظر لطبيعتها وجوهرها وأثرها على الكون الغير محدود، وحتى العلماء الماديون الذين يؤمنون بارجاع كل شيء إلى المادة، تحول الكثير منهم إلى التخمين، ولو كان للعلم الدور الكبير في تخمينهم، إلا أن البعض منهم أدرك من حاسة البصر، خطورة ما أنتجوه على الأمم والشعوب لقد أجاب رائد الفضاء محمد فارس على سؤال طرح عليه في محاضرة ألقاها حول علم الفضاء، وبعد تجربته بالصعود إلى الفضاء، والدوران حول الكرة الأرضية، إن الملحد والذي لايؤمن بالواحد عندما يصعد إلى الفضاء، ويخرج عن جاذبية الكرة الأرضية، ويسبح في الفضاء، الذي ينعدم فيه الوزن، يشعر بأنه قد انسلخ من الأفكار المادية، وأنه أمام موقف جديد، فرض

عليه وأنحنى لهذا المشهد المرعب والمهيوب والذي فـــرض وقعـــه، وبشـــكل لاشعوري على الواقع الذي فيه الإيمان بأن هذا الكون له منظم وواجد.

وإذا رأت العين وشاهدت ماصنعته الحرب العالمية الثانيـــــة في اليابـــان، والمأساة التي لازالت حتى الآن تعاني منها الشعوب، من نتائج القنابل الذريـــة، التي أطلقتها أمريكا على الشعب الياباني أدرك العلماء الخطيئة التي أرتكبوهـــا، بحق الإنسانية جمعاء، لأن مثل هذه الحادثة من الممكن أن تكرر وتحدث في أي مكان وزمان فهل الخوف الذي أحدثته هذه الظاهرة الإرادية، ستكون رادعـــاً لضمائر الآخرين من العلماء والسادة الذين يمتلكون مثل هذا السلاح المـــادي الفتاك بالإنسان والحيوان والنبات.

إن البصر والبصيرة عليها معالجة ذلك، إحساساً وشعوراً بخطورة نتـــائج العلم، الذي كان من الواجب أن يسخر للفتك بالأمراض التي ترعب البشـــرية وتشكل مصدر خوف على سلامة الإنسان، إن مصادر الرعب تتـــدلى عـــل أفئدة البشرية، وتشكل هذه المصادر الرعب في كل لحظة، وتجعـــــل البشـــرية والأمم والشعوب تفكر أكثر من اللازم، وتضع الخطط وترصد الأموال وتضع أغلب إمكانياهَا المادية، وخيرة علمائها، لامتلاك مسافة السبق عن الآخريـــن، من أجل امتلاك وسائل التدمير، لمواجهة من يشكل حالة ضغط، معنوية علـــى الطرف الآخر، وهذا الواقع تعيشه البشرية كل البشرية على ســـــطح الكـــرة الأرضية، بالرغم من الصيحات التي تطلق من هنا وهناك، لجعل هذا الكوكب خالياً من أسلحة التدمير الشامل لكن من لايؤمن بمصادر الخـــوف المعنويـــة، وماأكثرهم، يشكلون مصادر خوف على البشرية- لأن ضمائرهم، لاتعكـــس

إلا ميول نزعتهم المادية، المتأصلة بالتعاليم المادية، للسيطرة بها على كل ما هو مادي ومعنوي على الأرض.

المادة هي مصدر الرعب في هذا الزمن، لأن من يملكها، مبناه يتناقض ومعنى الآخرين، وهؤلاء بعبادتهم للمادة، يسخرون الوسائل الغير مشروعة إلى السيطرة على هذا السلاح وامتلاكه، وبما أن هؤلاء يملكون كل شيء على الأرض، فهم لايؤمنون حتماً بالطيوف النازلة من السماء، وهم فارغو الضمير والوجدان ولايرتبط معناهم إلا بالمباني التي توفر لهم السيطرة على هذا الجزء من العالم وعلى خيراته وثرواته، والخوف في المستقبل من هؤلاء، لأن الكارثة حتماً ستكون موجهة منهم، وهذا الشر، يسيطر حالياً على كل قوى الخير، ومن هنا نقول إن تدمير البشر بالوسيلة التي يملكونها، وهذا نراه ونلمسه ونشعر به وقد تشكلت وقدمت لتدمير الأرض، وما الحروب في الخليج العربي وفلسطين والبوسنة والهرسك ويوغسلافيا وافغانستان وبين الهند والباكستان وجنوب لبنان، إلا بعض المقدمات للنتائج التي نلمسها اليوم من القتل والتدمير، ولايتردد هؤلاء بقصف المساكن والجسور والأماكن العامة، وناقلات المسافرين، وتدمير ماهو وسيلة لحياة الآخر والآخر.

فالطائرات، وقاذفات الصواريخ، والقنابل الذرية، والصواريخ العابرة للقارات، ومختلف أنواع الأسلحة وماأكثرها، تشكل في هذا العصر، ونحن ندخل على أبواب القرن الواحد والعشرين، مصدر خوف ورعب على حياة الشعوب.

وعلى حاسة البصر تقع المسؤلية في دق ناقوس الخطر، من خلال الإرادة، إرادة التكوين والفعل، من أجل أن ينتفض الضمير والوجدان، وكل الملكات العقلية التي يملكها الإنسان لكبح الغرائز والميول الشريرة، لضبط مصادر الخوف المادية، وتدميرها وتحريمها على الشعوب لكي يعيش البشر بالصورة الأولى التي أرادها الخالق لمخلوقاته، والإستفادة من الجهد الذي يصرف للشر هدراً، وتحويله لكي يكون مصدر خير لتعيش البشرية بمشاعية، لايحرم فيها الفرد من التمتع بالحرية المادية والمعنوية وكل الوسائل التي تجعل الإنسان حراً على وجه الأرض.

قال الإمام علي كرم الله وجهه «كذّب كل ما تسمعه أذناك، وصدق نصف ماتشاهده عيناك» هذا القول لم يقل عبثاً للبشرية، وإنما أراد منه الإمام علي كرم الله وجهه، أن لايتسرع الإنسان بالحكم على الظاهرة المرئية، أو المسموع عنها من خلال ملاحظة ماتراه عيون الآخرين، ومن هذا المنطلق نهى الإمام علي عن الأخذ بما تسمعه الأذن لأن الناقل أحياناً ومايسمع منه، على الأغلب يضخم الظاهرة للآخرين من أجل إثارة الشعور، لأخذ المواقف التي هي في أغلبها ضد الإنسان ولاتخدمه.

والمثل يقول:«ليس أي إنسان من شتمك هو الذي شتمك، وإنما الناقل هو الذي شتمك»

فالإنسان أي إنسان، من خلال الحكمة التي أطلقها الإمام علي كرم الله وجهه عليه أن لايتسرع بالحكم على الظاهرة المرئية وعندما حض على تكذيب نصف ما تشاهده العين، يكون قد خلص الإنسان من نصف ملينوي

عليه فعله، أي انخفض الفعل إلى نصف الشدة التي عكستها العينان وفي كل الأحوال عندما يأخذ الإنسان بهذه النصيحة، لابد من أن يخلص نفسه من نصف الشر الذي كان، من المفروض أن تعكسه العينان للظاهرة.

فالعيون عندما ترى العالم الخارجي، ستعكس من خلال ماتراه ردات فعل من خلال ماتكوّنه في الشعور الداخلي، من إدراك لحجم وخطورة الظاهرة في المجال السلبي، وهنا تتجلى وتظهر مظاهر الخوف المعنوي، وانعكاس ذلك على الواقع فإذا كان المبنى الإنساني، مشبع بمظاهر الخوف المعنوية، ولاضرر من ذلك، فسنرى تأثير ذلك الإيجابي على الظواهر المتحركة والمرصودة من قبل العين، سينعكس ذلك خيراً، لأن الشعور الداخلي، والضمير الحي والوجدان الملجوم بالإدراكات العقلية، تحفّز العصب الحسي على أخذ الموقف الملائم، لما يؤمن به الإنسان، متأثراً بذلك بالطيوف النازلة من السماء، وخلفية الموقف الذي يصب في تأجيج الشر والأذى والضرر للآخرين.

يقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: «إن العين تدخل الرجل القبر،وتدخل الجمل القدر»

إن الله سبحانه وتعالى، لم يخلق الحواس الخمس، إلا لتتكامل نظرة الإنسان، وتكون شمولية إلى كل الجوانب التي توجد تحت الشمس، ولهذا ولما للعين من أهمية في الحكم على الظاهرة من الخارج، فلا بد من أن يقدر الإنسان هذه الحاسة، والتي تستطيع كشف الظاهر، ونقل هذه الصورة بالشكل الواضح الغير منحاز، والذي لاينتج عنه إلا صلاح الأسرة والمجتمع.

العين في الأدب العربي

العين: حاسة البصر والرؤية، والجمع أَعينُ

والعَينْ: الذي يُبعث ليتجسس الخبر.

والعَين: أن تصيب الإنسان بعين.

وعان الرجل يعينُه، فهو عائن، والمصاب مَعِينٌ على النقص، ومَعْيون على التمام.

وتعيَّنت الشيء: أبصرته.

وبعثنا عيناً أي طليعة يعتاننا لنا أي يأتينا بالخير.

العين: الجاسوس.

العَين: عين الماء، وينبوع الماء الذي ينبع من الأرض والجمع أعْين، وعُيُون.

وفي الحديث الشريف، «خير المال، عينٌ ساهرة لعين نائمةٍ».

وعين الشيء: حقيقته.

جاء الحق بعينه: أي خالصاً واضحاَ.

وعين كل شيء: خياره، ونفسه، وحاضره، وشاهده.[1]

---

[1] –ابن منظور– لسان العرب – الجزء الثالث ص/ ٣٠/

يقول الدكتور أسعد علي في كتابه مسرح الحب والجمال والفن ص/١٥٧-١٥٨/

«إن للعيون لغة خاصة، ومن يفهمها، يدرك علماً كثيراً في وقت قصير، ويفتح عينيه على آفاق جديدة من ثقافة العين وتربيتها» وكذلك يرى بعض المصورين، أننا حين تمسح أعيننا صورة ما، لانرى ألواناً وخطوطاً فقط، بل نشم رائحة، ونسمع أصواتاً تتفاعل في بوتقة الخلق، لتصبح طاقة من الانفعال الذي يجدد لنا بدوره إيقاعاً، ونغماً، نتبعه بأعيننا على السطح المرسوم.

وقد كتب المؤرخون عن عيون الملكة زنوبيا فقالوا: إنها أسهمت في إقامة علاقات خاصة، بين الصحراء والقمر.

وقد فطن الشعراء إلى ما تقرِّره العيون من العلاقات الاجتماعية فقال قائلهم:

والعين تعرف من عيني محِّدثها

إن كان من حزبها أو من أعاديها

كما قال أحمد شوقي: مبيناً أن للعيون لغة، غير لغة الكلام، حيث، ترسل العين طيوفاً، تعانق طيوف عين المنظور، ومن هذه المعانقة يتم التفاهم على ماذا يجب أن يكون، دون أن تتدخل لغة الكلام أو اللمس، وهذا يؤيده مايقول الشاعر:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت

عينيَّ في لغة الهوى عيناك

وبالعين يرتفع الإنسان إلى السماء بلمحة.

وللنظر أنواع: فإذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل: رمقه.

وإذا نظر من جانب أذنه قيل: لحظة، فإذا نظر بعجلة قيل: لمحه، فإن رماه ببصره مع حدَّة قيل:حدجه، وإذا تهيأ الرجل للبكاء قيل: أجهش، فإذا صاح مع البكاء قيل: أعول، فإذا حاكت دموعه المطر قيل همت، وإذا كان البكاء صوتاً قيل: نحب ونشج.[1]

والعين رمز، ومصدر فتنة وسحر، أتخذ منها الفراعنة رمزاً لوحدة مصر القديمة، واستمرار الحياة، ورمزاً دينياً للعودة إلى الحياة بعد الموت، وللصحة بعد المرض.

لقد عرف العرب القدامى اللون الأزرق في عيون الغزاة الروم، ولذلك لم تأت أوصافها في شعر التراث إلا نادراً، ولقد كره العرب اللون الأزرق، والعيون الزرق، فاتهموا أصحابها بالكذب واللؤم والشر، وكان اللون الأزرق في العيون علامة فارقة للأعجمي الرومي، وكل أعجمي حتى قيل عن شديد العداوة «أنه عدو أزرق».

ويقال في العدو «هو أزرق العين، وإن لم يكن أزرق»

ولقد هجا بشار بن برد العباس بن محمد العباس، أخا الخليفة أبا جعفر المنصور بقوله:

وللبخيل على أمواله علل

زرق العيون عليها أوجه سود

وهذا المعنى أخذه بشار من قوله تعالى من سورة طه، آية /١٠٠/

---

[1] -أبو منظور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية ص/١٢٣-١٢٥/

«يوم ينفخ في الصور، ونحشر المجرمين زرقا».

وفي تفسير الجلالين: معناه أن تكون عيونهم زرقاً ووجوههم سـوداء، لأن وجوه المجرمين تسوَّد يوم القيامة.

وقال بشار: في وصف العين الزرقاء بالقباحة والحسد:

تراخـت فـي النعيـم فلـم ينلـها
حواسـد أعـين الـزرق القبـاح

أزيـرق مشـؤوم أحيمـر قاشـر
لأصحابه نحـس علـى القـوم ثـاقب[1]

وقال ذو الرمة في ذم العيون الزرق:

زرق العيـون إذا جاورتـهم سـرقوا
مايسـرق العبـد، أو نابأتـهم كذبـوا

والعين تجلب السعادة، وسر السعادة في الدنيا تجلوه منك على الأكـوان عينان على حد تعبير الشاعر بدوي الجبل:

سر السعادة في الدنيا وأن خفيت — تجلوه منك على الأكـوان عينـان
آمنت بـالحب مـا شـاءت عذوبته — آمنت بالحب فـهو الـهادم البـاني

وحين يزور الطيف المحجوب أجفان الشاعر يرتفع على أجنحة الهوى، إلى عالم مسحور من روى العينين حين يقول الشاعر بدوي الجبل:

رفعتني بجنـاحي قـدرة وهـوى — لعالم من رؤى عينيـك مسـحور

---

[1] -العيون في الشعر العربي ص/ ٧٨-٩٧/ محمد سمير الخطاب

تعب من حسنه عيني فإن سكرت   أغفت على سندسي من أساطير
أخادع النوم إشفاقاً على حلم   حان على الشفة اللمياء مخمور

والمتنبي يعكس عظمة العين للمبنى التي توجد فيه ولمعناه وضميره ووجدانه وقوة إدراكه في ضبط مسار العين وما تعكسه من خير أو شر، فالذي يملك إرادة العقل المدركة التي لاتنقاد إلى العواطف، يختلف عن المنافق والمحدود في وجدانه الذي تعظم عنده وتكبر المسائل التافهة والتي لاتشكل في الواقع إلا بؤر شريرة، بينما المدرك والذي يمتاز بالإرادة الخيرة والوجدان الكبير فإن عينه لاترى المسائل الكبرى إلا صغيرة لقوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

والعين التي تبكي من خشية الله، فمبناها الذي توجد فيه يحمل رسالة الواجد ويعمل بها: يقول الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم: «عينان لاتمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

وللعين أهمية في رصد الآخر، يقول الأصمعي «رأيت رجلاً عيوناً: قال: إذا رأيت الشيء يعجبني، وجدت حرارة تخرج من عيني، ومما يروى أن العرب قديماً قبل الإسلام كان الرجل منهم إذا أراد أن يصيب صاحبه بالعين، تجوعَ ثلاثة أيام، ثم كان يصفه، فيصرعه بذلك، وبهذا المعنى قال الشاعر العربي:

ترميك مزلقة العيون بطرفها   وتكل عنك نصال نبل الرامي

حقاً إن العين نعمة من نعم الله، وهبها لمخلوقاته حتى يتمتع الإنسان بها، وما أكثر جوانب التمتع في الجهات الست الموجودة في هذا الكون العجيب فعلى الإنسان صيانتها، لكي يقدم من خلالها الخير، كي تبق هذه الحاسة مصدر خير لمبناها ومبنى الآخرين.

حاسة السمع بين العقل والنقل

حاسة السمع هي الحاسة الثانية من حيث الأهمية بعد حاسة البصر، وأهميتها من خلال ما تعكسه العين للآخر- الإنسان - الذي لم يشاهد بنفسه الظاهرة، والتي نقل صورها للآخر، فهذا الآخر، قد ينقل هذه الصورة، من خلال السمع، وليس من خلال المشاهدة، وهنا كم يكون حجم الظلم كبيراً والذي يتم من خلال حاسة السمع، خاصة إذا كانت المعلومات ليست دقيقة ولاتعبّر عن الواقع الفعلي، فالأذن مهمتها كقناة تسجيل المنقول وتسريبه للآخر بدون صورة له في الإدراك العقلي، وهنا الكارثة عندما يكون المصدر، متأثراً بالعوامل المادية، والعواطف والمصالح الشخصية التي تنعكس على مصالح الأنا الجمعي، والأذن لاتستطيع أن تكون حكماً، لأن وسائل الإثبات معدومة باللمس، وهي منقادة إلى حاسة البصر، وتعبر كل الأفكار والأحداث المنقولة من الآخرين إلى الإدراك العقلي، ليتكون عند المنقول إليه، فكرة عامة عن الصورة التي استطلعت من عين الآخرين إليها فالأذن هنا وسيلة، تستخدم كالقطار، لنقل البضائع، ولا يستطيع أحد أن يلجمها، إلا بالإرادة الخيِّرة المعقلنة، ومن هنا تأتي عظمة الحكمة التي نادى بها الإمام علي كرم الله وجهه عندما قال: «كذّب كلما تسمعه أذناك، وصدق نصف ما تراه عيناك».

وفي كل الأحوال هذه الحاسة، تضبط وتلجم من خلال العقل والإدراك العقلي، الموصول بمصادر الخوف، سواء أكانت مادية أو معنوية.

والأذن تضخم الحدث في الواقع المتخلف، والذي لا توجد فيه أدوات الحضارة، لأن الوسائل في هذا القرن، والتكنولوجيا المتقدمة، تختلف عن الوسائل التي كانت في القرون المنصرمة، ففي السابق كان الإعتماد في نقل صورة الظواهر من ناقل إلى آخر، أما في هذا العصر، فوسائل إثبات صحة الظواهر متوفرة، من خلال الفضائيات، والأقمار الصناعية، والمركبات التي تدور حول الأرض، حيث تشاهد الظاهرة، مهما كانت صغيرة، حتى ولو وصلت إلى حجم العصفور، كما تسمع الأذن بالوقت نفسه الصدى، الصادر عن هذه الظاهرة المنقولة.

الإنسان المتأثر بمصادر الخوف المعنوية، يهتز وينفعل، عند سماعه مداميك الكلم، التي تشع معاني حول أذى زيد أو عمر.

حاسة السمع، كانت هي المسؤولة عن غرس الواجد الغير موجود، في البدايات الأولى وحتى عصر التدوين، في الضمير، وهذا يعود لإرتباط حاسة السمع بمصادر الخوف المادية والمعنوية وذلك قبل الرسالات الكتابية، لأن حاسة البصر، كان ينحصر دورها بمصادر الخوف المادية، وهذه المصادر للخوف كانت تنتقل بالتواتر من سامع إلى آخر، وكانت أشد وقعاً على النفس، من أي حاسة من الحواس التي توجد في الإنسان.

فعلى حاسة السمع كانت تبنى مصادر الخوف، لاعلى حاسة البصر، وبكل الأحوال بعد أن تقدمت وسائل الثقافة والتعلم والاختراعات، تراجعت

مصادر الخوف، لأن البعض وخاصة الذي أندهش من المكتشفات العلميــــة، أعطى للتجربة ولحاستي اللمس والبصر، أهمية كبرى لليقين.

ومن هنا نرى أن الإنسان القديم، كان يميل إلى الخير، وعنده لهفة لمساعدة الآخرين أكثر مما نشاهد ونلمس اليوم، ولو طبقنا هذا على ريفنا الذي عشنا به ولا زلنا، لرأينا إن وسائل التعاون والتعاضد وإنقاذ الملهوف كانت سمة متمـيزة قديماً، وسمة الخوف من المجهول كانت واضحة، إلا أن بعد انتشـــار وســائل التنوير، بعد أن كانت الأرياف تقتصر على شخص واحد يجيد القراءة والكتابة أحياناً، وبعد افتتاح المدارس، وتطور الحضارة، تراجعت قيم الخــير والعدالــة والمساواة لأن القيم المادية نهضت وتغلبت بمظاهرها وتطورها وانتشارها علــى كل القيم الأخرى، والأذن من خلال الإدراك العقلي، تحلل الكلام المســموع، وتستطيع الحكم عليه صدقاً أو كذباً، كما أن الأصوات المنكرة، نســتنكرها، ونطرب للأصوات العذبة ونقترب منها، ونتفاعل معها، لأنها تهز مبنى الجســم، ويتيه الشعور الداخلي ليعانق العالم الخارجي من أثر الصوت العذب الذي تنقله الأذن إلى مبنى الإنسان، وكم يعانق هذا الشعور بالعالم الآخر، الغير مرئـــي، لتتوحد القيم الروحية، بالقيم المماثلة لها، وصولاً إلى الغاية الكلية من الوجـود، وهي السعادة، التي هي غاية الوجود والحياة، كمــا أن الأذن تقــوم بعمليــة استطلاع، وتحضيرات ونوايا وخطط الآخرين، عن طريق الاستماع في الليــالي الغير مقمرة لحكايات وأصوات، وما يقال ويخطط بحق الطرف الآخر، المــراد غزوه، أو تصويب الأذى له، فالأذن هنا أداة استطلاع من خلال ما تسمعه من دبيب على الأرض، وما يصدر عن أصوات الآخريــن، إلا أن هــذه المهمــة

سقطت في العصر الراهن، لأن أشعة الليزر وتقدم العلم، من خلال الأقمار الصناعية، تستطيع كشف كل شيء حتى في أحلك الظروف، وتستطيع بالآلات الحديثة المرهفة الحساسة، تسجيل أخفض الأصوات التي تصدر عن الآلة وعن الإنسان.

- والحاسة الثالثة هي حاسة الذوق، حيث جاء في المنجد معنى مادة ذوَق ذاق الشيء ذَوقاً وذَواقاً ومذاقه: أدرك طعمه بلسانه.

الذوقُ: الحاسة التي تميز بها الطعوم وتكون بواسطة الجهاز الحسي في الفم ومركزه اللسان، وفي «الأدب والفن» مَلَكةٌ يُدرك بها جمال الفن، أو الأدب يقال: هو حَسَنُ الذوق للشعر أي: فهّامة له، خبير بنقره.

مما جاء في القاموس حول مادة - ذوق- نرى أن لحاسة الذوق معنيين مادي، ومعنوي، فالمادي ما يستطعم به من المادة الملموسة المأخوذة عن طريق الفم، حيث نقول طعم تلك المادة حلو، أو حامض أو مالح أو مر، وهكذا ونحكم على المادة بأبعادها أو تقريبها من الجسم، أما الجانب المعنوي، فهو الحكم على الشيء من خلال ما خزنه الإدراك العقلي عن هذه المادة من طيب أو خبث، فنقول من خلال التجارب فلان طيب وقريب من القلب وهذا قياس معنوي لايقاس بالمتر ولايكال بحجم، وذلك من خلال الذوق الذي يملكه الإنسان، كمعنى ناتج عن طيب سريرته وقديماً قيل «الذوق فضلوه على العلم» لأن للذوق أهمية في كشف كياسة الرجل شكلاً ومضموناً، ومن المعروف أن المنسجم شكلاً ومضموناً يملك فناً رفيعاً في اللياقة وحسن التعامل مع بني

جنسه، وهذا النوع يغلب عليه الإنسجام مابين باطنه وظاهره ومصادر الخوف لاترى .

والحاسة الرابعة هي حاسة الشم: ولها جانبان مادي ومعنوي، فالجانب المادي يدرك به الروائح الكريهة والعطرة، والجانب المعنوي يدرك به الآخر، كأن تقول: شم الخير، أي أدرك طرفه، وشم الأمر، اختبره.

والحاسة الخامسة: هي حاسة اللمس، وهي قوة، منبثة في العصب، تدرك بها الحرارة والبرودة والرطوبة ونحو ذلك عند التماس.

إن الحواس الخمس مسؤولة عن فعل الخير أو الشر، فإذا جرد الإنسان منها يصبح ككرة القدم وإذا تناغمت هذه الحواس بالإنسجام المتكامل فلا بد من نتيجتين لاثالث لهما: فإذا تأثرت هذه الحواس بالجانب المادي لمصادر الخوف فويل للبشرية، وإذا تأثرت بالجانب المعنوي لمصادر الخوف، فلا بد للبشرية جمعاء من تحقيق السعادة على الأرض.

آلية الرادع الآلي اللاشعوري

تتشكل آليات لاشعورية، تكبح بالإرادة، وتأمرها بالإحجام عن هذه الظاهرة وتلك، للابتعاد عنها والانصراف، خوفاً من العقاب المادي الذي ربما يكون من نتائجه فقدان الحياة، وهذه الآلية لاتنقاد بالأوامر، وإنما يكون الرد على الموقف، الذي لايحمد عقباه، آلياً، وبطريقة لاشعورية، هذا الموقف الذي كان جواباً إيجابياً، لايرد عليه، لأنه الجواب المناسب، ولابدل عنه، لأنه الجواب الصح الذي يعالج مسألة مفروضة، لاتقبل الجدل، ولاالمناقشة، وهذا الموقف الذي خرج إلى حيز الوجود، لم يخطط له، ولم يعط فسحة زمنية ومكانية لمناقشته، لأن مخزون العقل، من الإدراكات الناتجة، عن منعكسات الظواهر الحسية، شكلت مفاهيم من تراكم تجارب الزمن الماضي، عن طبيعة وجوهر هذه الظاهرة، سلبياتها وإيجابياتها، حيث خزن العقل إدراكات عن هذه الماهية، لذلك نرى أن الموقف الذي يجب أن يؤخذ، جاهز، ولايناقش، لذلك يكون الردفوري، ومناسب، ولايحتاج إلى توجيه الإرادة لاتخاذ الموقف، بل الفعل الموجه تجاه هذا الموقف، لاشعوري ولاإرادي، لأن مخزون الشعور واللاشعور، فيه الحد الكافي والوافي من المعلومات المدركة والمكدسة في هذه الخلايا، عن

الظواهر الموجودة في العالم الخارجي، وعن طبيعتها ومظاهرها، ومخاطرها على الذات الإنسانية.

فالإنسان، أي إنسان، عندما يرى أفعى، وهو يعشب حقله، أو ينقل حجارة من مكان إلى آخر لصنع سنابل، أو بين عنابر القمح والشعير، أو في أي مكان آخر، نراه وبشكل لاشعوري، وبدون أن يناقش الموقف، أنه أبتعد إلى الوراء، خطوات عديدة دون أن يشعر بذلك، و لم ير نفسه إلا هكذا فعلت، وكم كسرت رجل زيد، ورضت خاصرة فلان، من جراء الاصتدام الذي حصل بظاهرة أخرى، و لم يشعر كيف اصتدم، نتيجة أن هذا الموقف لم يناقش، و لم يفسح الموقف فسحة زمنية لكي يختار هذا الإنسان، هذا الرد، أو ذاك، وإنما كان الموقف آلي لاشعوري، والسبب في ذلك، الإدراك المسبق، عن ماهية هذه الأفعى، وما تكنه في جوهرها من سموم، تقضي بالموت على مَنْ يلامسها.

فالظاهرة المادية، كالأفعى، من مظاهر الخوف المادية، التي ترى بالحواس، وخاصة حاسة البصر، ومن خلال حاسة البصر، تشكل الباصرة، مفهوماً لايرى، وبحجم المعنى التي تعنيه هذه الأفعى، وهذا أدى إلى، وشم ضمير الإنسان ووجدانه بل ضمير الأنا الجمعي للبشرية بالشر الذي تقدمه، هذه الأفعى إلى كل إنسان، وحتى على كل حيوان يقترب منها، لأن الأقتراب، شكل هذه المسلمات عند البشر نتيجة التجارب التي مورست ومرت، والتي كان من نتائجها، فقدان الحياة لمن يرتجل، هنا تشكل نوع من المسلمات التي لا تناقش، وأصبح هذا كالإيمان بشر هذا وخير ذاك، ومن خلال هذا الإيمان،

نرى الشعور، ينتفض، ليترجم هذا الإيمان عملياً، من أجل خير الإنسان والحفاظ على حياته، والرادع هنا لاشعوري ومنبعه هذا الضمير الحي الذي خلقه الله للإنسان، وميزّه به، عن بقية المخلوقات، ليتقي به شر الظواهر التي تهدد حياته.

ومن المعلوم أن هذه الأفعى، في حال ردها، فهو للدفاع عن النفس، وللحفاظ على حياتها، وهي تستخدم الرد، بشكل غريزي، ولاتناقش الموقف، وكم مات إنسان من رد الأفعى عليه،وهو لم يكن له نية في قتلها، وإنما كان اللسع نتيجة خدعة حواسه له، لأنها لم تكن متيقظة سلفاً، على ما يوجد تحت الردم أو الركام، أو مابين الأعشاب، وهذا ما يجب أفتراضه، فالموقف من كلا الظاهرتين، ناتج عن مفهوم الخوف المادي، الذي تشكل كقناعة وكإيمان وكمسلمات ملموسة ومجربة، لاشك في نتائجها على الفرد، والخوف هنا على البقاء واستمرار الحياة.

وما أريد أن أستفيد منه وأفيد، وأستخلص، هو لماذا لايتطابق مفهوم الخوف المادي، مع مفهوم الخوف المعنوي، في سلوك الإنسان على الواقع الذي يعيش فيه.؟.

لماذا لايتشكل الرادع الآلي اللاشعوري، تجاه أي ظاهرة، حدد القانون الغيبي، نوع التصرف الذي يجب أن يكون، عند رؤيتها بالحواس، أو إدراكها بعالمه الداخلي.؟.

لماذا يؤجل الإنسان ويمهل جوابه عندما يرى ببصره وبصيرته، شهيق وزفير، إنسان آخر، يحتاج إلى مساعدة مادية أو معنوية، وبنفس الوقت، يؤمن

كما يدعي، بالعقاب المادي والمعنوي، لإهماله ذلك، لماذا لاينتفض إيمانه وإنقاذه من الغبن والموت؟.. وبنفس الوقت يدعي هذا المهمل أنه ظل الله على الأرض، علماً لو أن الموقف كان، عكس هذا الموقف لمدّ يده، لأن في ذلك منفعة مادية، يستفيد منها، لاستمرار الحياة على حساب الآخر.

إن مصادر الخوف المعنوية كثيرة وأبرزها، الجنة والنار، ومن يتشدق بذلك لايعَد ولايحصى، كما أن الإيمان بالتقمص، مظهر من مظاهر الخوف المعنوية أيضاً، وماأكثر من يؤمن به، والسبل إلى الجنة كثيرة، وكل سبلها، كما حُددت معروفة، وأبرز طرقها عمل الخير، والإبتعاد عن الأذى، وتحليل الحلال، وتحريم الحرام،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبر بالوالدين، ومساعدة المحتاجين، وتسخير كل الأفعال الميدانية التي يقوم بها الإنسان للعمل الصالح، بالإضافة لتطبيق الشرائع السماوية والإيمان بها قولاً وفعلاً، إحساساً وشعوراً.

والطريق إلى النار، بعكس طريق الجنة، وعندما نقارن عملياً وميدانياً، ونسجل الأفعال المنعكسة عن أصحابها، سنرى الفاجعة والمأساة والذهول في هذا وذاك، وبتقديري إن كان هناك نار، فلن تتسع بالغاصين فيها، وستكون الجنة كالغابة المترامية الأطراف تتسع لأضعاف ما يوجد فيها، بل لعشرات الأضعاف، إن التقمص، وماأكثر من يؤمن به، وهذا أيضاً من مصادر الخوف المعنوية، فالله سبحانه عادل لايظلم مخلوقاً، ولحكمة منه، تباينت حظوظ النسل في هذه الحياة، ليبين لهذا، وذاك، ماذا يجب أن يفعله في هذه الحياة، لاستمرار هذا القميص، في الجيل القادم، أو لتلافي الأعمال التي من شأنها أو من منعكساتها، الاستمرار في هذا الثوب، سواء أكان هذا الرداء بعكس السلب أو

الإيجاب في حياته الحالية، إن الفكرة العامة من التقمص، تشكل رادعاً في ضمير الإنسان للعمل الصالح، من أجل أن يكافأ في هذه الحياة، أو في الحياة الثانية بعد موت الجسد، وذلك نتيجة لعمله، ولسوء طالعه المنعكس من سلوكه في الحياة الحالية، أو من الحياة السابقة، فالتقمص رادع للإنسان، ليكون له حافزاً على العمل الصالح، ولكي يكون له عوناً، إذا لم يوفق في هذه الحياة، ووسيلة ناجعة، للتعويض له في القميص القادم، وهذا يجب أن يكون انعكاساً لما فعل وتصرف، والمؤمن بذلك من المفروض، أن يكون مهذباً وعاقلاً ومعتدلاً ومتواضعاً، وناكراً للذات وحب الأنا، ومعترفاً بالآخر وناكراً للقيم المادية، وصادقاً في كل المواقف، وباطنه يعكس ظاهره، والعكس صحيح، وهذا من شأنه، أن يساهم في العيش المشترك مع الآخرين، على الصراط المستقيم، وهذا يؤدي إلى تأمين الحد الأدنى من السلوك السليم، والتصرف الذي ينعكس على الجميع بالخير والبركة والاطمئنان المادي والمعنوي، في المحيط الذي يعيش فيه الفرد والأسرة والمجتمع.

ومن مصادر الخوف حتمية «الموت» لكل مخلوق وهذه ظاهرة دائمة، تكفي لردع الإنسان، لتعديل سلوكه، والوقوف عند أي تصرف، حتى لا ينعكس عنه إلا الخير، لقد كان ذكياً ذلك الشيخ وبليغاً، عندما ترجل ليقدم الصلاة على راحل كان يملك مئات الملايين، والعقارات والمحلات التي لاتقدر بثمن، كان جريئاً ذلك الشيخ الوقور، حيث صاح بصوته الجهور وهو بين جمع كبير، والغير المتجانس، بالوضع المادي والمعنوي، صاح وقال: تعالوا وانظروا، أفسحوا الصفوف أيتها الأخوة والأخوات لبعضكم البعض، ليشاهد

كل واحد منكم هذا المسجى بين آيدينا، وكم دهش الحضور، حيث ظن الكل أن شيئاً ما ظهر على هذه الجثة وخلال تلاطم الأكتاف على الأكتاف ومـــد النظر من هذا وذاك، للمشاهدة، أستأنف الشيخ حديثه وقال، انظـــروا هـــذا المسجى، ماذا أخذ معه، بعد رحلة أطنبها في الكد والجد والسهر ليلاً نهـاراً ؟. لم يأخذ معه شيئاً إلا ما يستحق عن فعل قدم فيه الخير للآخر.

لقد كان الشيخ موفقاً في صرخته، وكان الصدى أبلـــغ مـــن المواعـــظ والمقدمات المطنبة عن الموت، واختصر بهذه الجملة الـــتي نـــادى بهـــا، كـــل المقدمات، واستطاع أن يضع الحضور في دائرة الخوف وتخاطر الأفكار، ليـأخذ الكل العبرة من وجوده على الأرض، ولكن - وهذه قناعتي - أنطلق الأكثريـة وهم يفكرون باختراع الحيل ووضع البرامج لليوم الثاني لحصد وجمع ما يضيف ويزيد، على ما يملكه، ولو كانت السبيل في ذلك غير مشروعة.

مصادر الخوف المعنوية والواقع

المصادر المادية الموجودية على سطح الكرة الجامدة والمتحركة، تسخر كلها من قبل عقل الإنسان، لمواجهة مصادر الخوف المنعكسة عنها، والتي تحرك وتوجه بفعل ذكاء الإنسان المتفرغ والمتخصص لهذه الغاية، فالخوف الواقع، معظمة، الموجود على الأرض حالياً، من صنع العقل وغريزة الإنسان الأمَّارة بالسوء، ومن خلال الملاحظة، نرى أن مصادر الخوف، المعنوية، لم تستطع لجم وكبح الترعة الشريرة عند الإنسان، ووضع حد لها، بالرغم من تعاليم الرسالات السماوية السمحة، حيث نادت كل هذه الرسالات، وما وضعته من شرائع وقوانين، لضبط العلاقة مابين الإنسان والإنسان، إلا أن ما نراه هو العكس فمصدر الخوف المادي المنظم والموجه لقتل الآخر، هو المسيطر على العلاقات بين الدول والأفراد والمجتمعات، حتى أن العلاقات الضيقة على مستوى المزرعة يتحكم بها من ملك النفوذ المادي، وربما صاحب هذا النفوذ على الغالب، يرغب الآخر البسيط، بهالة معنوية يتسلح بها، وما أكثر هؤلاء الذين يملكون القدرة على التلفيق ما بين النقيضين، المادي والمعنوي، فهؤلاء يستغلون بذكاء، مصدر الخوف المعنوي، ويتسلحون به ظاهرياً،لاستغلاله باطنياً في احتكار مصادر الدخل المادي، وهذا نلمسه وندركه، ونراه،

ولانستطيع وضع حد له، لآن المجتمع الأمي الظلامي، والتربية الوراتية والإيمان بالغيب بالتسليم، يدركها هؤلاء الذين استطاعوا كشف نقاط الضعف عند هذا وذاك، وهذا الأمر نراه يطبق بين الدول، والعلاقات الحالية بينهم، ينظمها قانون الربح، لتكديس الأموال، ولو كان ذلك على حساب قهر وجوع الآخر، وهذا نلمسه ونراه وندفع ضريبته، من خلال هيمنة مصادر الخوف المادية، فاليوم توجد الآلة الحربية المتطورة والتي تستطيع بالتوجيه الآلي، اختراق السماء، والدوران حول الأرض، لتدمير الآخر الضعيف.

فحرب الخليج وحرب البوسنة والهرسك، وتحالف الغرب ضد يوغسلافيا، وتهديم الاتحاد السوفييتي، وضرب قوى التقدم في العالم،لها خلفياتها، للسيطرة على مصادر الاقتصاد وضرب الايديولوجيات التي كان هاجسها كرامة الإنسان وحقوقه، وهناك صيحات وصيحات، ممن حمل مصدر الخوف المعنوي، للكلف عن تعذيب البشرية وقتل الأبرياء، واحتلال الآخر، مبنىً ومعنىً، ولكن ما الفائدة.

إن الأصوات المنعكسة من منبع الخوف المعنوي، والمنتشرة في كل بلدان العالم، لاتعادل على سطح الأرض خوفاً، من المصادر المعنوية، مقدار صدى طلقة مسدس أراد صاحبه قتل أبرياء، طمعاً في استعمال منزله وعرضه وخيراته، التي يعيش عليها.

فالخوف من المصدر المادي، هو الأهم وهو المسيطر، وبدونه لا يوجد استقرار، ولا أمن ولاعدالة ولا مساواة، وهو مع الأسف، دليل على انعدام مصدر الخوف المعنوي، وعدم احترام القوانين التي سنتها الشرائع والأنظمة

البشرية في كل دول العالم، حتى ضمن الدول التي تدعي بأنها تعتمد في نظامها، على مصادر الخوف المعنوية، والدليل على ذلك الآتي:

١- ما تنفقه الدولة - أي دولة - على سلك القضاء المنتشر في مراكز التجمعات الكبيرة، في النواحي والقرى الكبيرة، وما أكثرها، فهناك ألوف القضاة، ومساعدوهم من الموظفين، والأبنية الفخمة التي تبنى خصيصاً لذلك، وما يرصد من أموال لتنفيذ ذلك، وهذا كله لمحاكمة الخارجين عن القانون، حيث نرى محاكم الدولة تغص يومياً بالمئات وهم تحت قوس العدالة، ولهذا الواقع المؤلم ترصد الدولة وتستترف طاقات مادية ضخمة.

٢- المحامون، وما أكثرهم في كل دولة، وهؤلاء الوسطاء بين المواطن والقضاء، كم يستترفون طاقات المواطن من أموال من أجل عدالة قضاياهم أمام القضاء

٣- الشرطة: وما يتفرع من هذا السلك من أصناف أخرى تفرز وتوضع ليلاً نهاراً لتأمين راحة المواطن والمحافظة على سلامة ممتلكاته ووجوده، بالإضافة إلى الآليات وأماكن السكن، والأموال التي ترصد والتي لا يعرف لها حدود وهي تساهم في استتراف طاقات الدولة من الأموال لتأمين الغاية من وجودهم.

٤- السجون: وما يرصد لها من أموال وموظفين ويدل طعام وأماكن سكن والسهر على وجودهم، كل ذلك يسبب نزف طاقات الدولة.

٥- جهاز الأمن بمختلف أجناسه الداخلي والخارجي وما يترتب على ذلك من رصد أموال كرواتب وسيارات ومحروقات وأماكن سكن وغير ذلك.

لو ألقينا نظرة إلى مجمل ذلك، لاستطعنا أن نقول أن عشرات المليارات سنوياً تنفق من اجل ذلك، من أجل ضبط البشر وتخويفهم بمصادر الخوف المادية هذا بالرغم من وجود المراكز التنويرية في مقابل ذلك، لشحذ العقل والإدراك العقلي، بالقيم المثالية، ومن هذه المراكز، الجامعات المنتشرة في كل المدن الكبيرة، والمدارس الموجودة في كل مزرعة، والمعاهد، والجوامع والمساجد وبيوت الله، والمراكز الثقافية، ودور النشر والطباعة، بالإضافة إلى وسائل الإعلام، المسموعة، والمقروءة، والمرئية، والأعياد والمناسبات الدينية، بالإضافة إلى الكتب السماوية، والأحاديث النبوية، كل هذه المراكز التنويرية موجودة، وبالرغم من ذلك نرى هاجساً موجوداً عند المسؤولين في كل الدول لتجنيد عشرات الآلاف من المختصين والمدربين، لضبط سلوك الناس، وهذا يقودنا إلى القول أن مصادر الخوف المعنوية، على الرف ولايوجد لها ظل على الأرض، بدليل ما ترصده الدول على ضبط الحالة الأمنية، ونستنتج أن الإنسان يميل إلى المادة بكل تفرعاتها المنتشرة على الأرض، ولايذكر الإنسان الواجد إلا عندما لاتجدي المادة نفعاً لإطالة وجوده على الأرض.

فالواقع الذي نعيش فيه، وهذا ينطبق على كل المجتمعات البشرية، واقع مادي والوسائل التي تستخدم لذلك أصبحت مشروعة تطبيقاً لمفهوم شرعة الغاب.

الخاتمة

تم عرض بلمحة سريعة ومتواضعة وبدون تفصيل، مفهوم الخير، منذ دبيب الإنسان على سطح الكرة الأرضية، ومحاولته ترويض نفسه، وترويض الظواهر لكي يتأقلم مع المحيط الذي يعيش فيه، كما ألمحنا إلى مفهوم الأديان، وكيف تطورت من عبادة مظاهر الطبيعة، والظواهر الكونية إلى عبادة الديانات الكتابية، والتي دعت إلى المحبة والتسامح والاعتراف بالآخر، ووعدت بالجنة والنار، والثواب والعقاب في الحياة الدنيا والآخرة، كما تم بحث مصادر الخوف، وحسنات مصادر الخوف المعنوية على الفرد والأسرة والمجتمع، إذا استخدمت بالشكل المطلوب، والتي لا ضرر منها ولا ضرار، حيث تساهم في خلق القيم الإنسانية والأخلاقية وتنعكس في تصويب العمل المادي، لدعم مسيرة الإنسان وتعميق إنسانيته، كما أمرت الديانات القديمة والحديثة، كما تم بحث مفهوم الإدراك العقلي المنعكس تشكيله من مصادر الخوف المادية حماية للجسم والروح معاً، وفي مقابل ذلك كيف يجب أن يتشكل الرادع الآلي اللاشعوري واللاإرادي النابع من داخل الإنسان من ضميره ووجدانه، والمنعكس من مصادر الخوف المعنوية، تجاه أي ظاهرة، والعكس صحيح، من أجل أن تستقيم الأمور في الحياة كي لاتحتاج إلى رادع إرادي، يشبه الشرطي المسلح،كي يضبط وينظم السير بالتلويح بالآلة الحربية والعقوبات المادية والمعنوية.

وعند المقارنة لمصادر الخوف ومايطبق منها، رأينا أن مصادر الخوف المادية هي المسيطرة على الأرض، بينما مصادر الخوف المعنوية لايوجد منها شيء، إلا

ما يدعي البعض باعتناقها، لإستغلالها بتنويم الآخر والضحك عليه، لاستمرار طاقاته المادية والمعنوية، خدمة لمن تفنن في التلفيق والنفاق، ليوهم الآخرين المستضعفين مادياً ومعنوياً، أنه ظل الله على الأرض وأنه الوسيلة ليوصل هذا الآخر إلى الحياة الأخرى الفاضلة.

إن الواقع الذي نعيشه تحت الشمس، هاجسه تدمير القيم المعنوية وتغليب قوى الشر المنعكسة عن القيم المادية على كل شيء، وهذا نراه ونلمسه على أي صعيد مهما كان حجمه، فرداً، أو أسرة، أو قرية أو مجتمعاً بكامله، فالحق مغموس بالوحل، ومرتبط بالمصالح المادية، سواء على مستوى الفرد أو الأسرة أو المجتمع، والنفاق والدجل والأزدواجية في ذات الإنسان، أصبحت موضة العصر، والاستزلام والتبعية حدِّث عنها ولاحرج، والسقوط وضعف الضمير والوجدان ميزة هذا العصر المادي.

إن مصادر الخوف المعنوية التي كان لها الدور الأساسي عبر التاريخ في ترسيخ مبادئ اخلاقية إنسانية أخوية بين الإنسان وأخيه الإنسان، وكانت الرادع لكل فرد لاحترام حقوق الإنسان وعدم الإعتداء على حرماته، ولعبت دوراً كبيراً في تكوين الضمير والوجدان الحي، لاحتقار المادة ومصادرها، والإنشداد والتعلق بالقيم التي تعتبر الإنسان أخا الإنسان، أينما وجد، وأنه لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، والناس سواسية كأسنان المشط، وهم في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ولاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، والتعاون على البر والتقوى،

وعدم التعاون على الأثم والعدوان، وإن لكل إنسان ماسعى، وأن سعيه سوف يرى، ومن ستر سترة لأخيه ستر الله له سترة يوم لآخرة، وما أكثرها حيث لامجال هنا لحصرها، نراه اليوم ضمن طيات الكتب، ولانرى منها على الواقع ما يستحق الذكر، والدليل على ذلك الآلة الحربية من البسيطة، إلى المعقدة تستخدم لقمع الإنسان، للرضوخ إلى مشيئة الآخر دون الاهتمام إلى مصادر الخوف المعنوية، والآتي لا يبشر إلا بالمزيد من ابتكار مصادر جديدة وحديثة للآلة الحربية لردع البشرية، ووضعها في سجن مغلق يتحكم بنوافذه من ملك هذه الآلة المدمرة، وملك مصادر الدخل المادي الموجود على سطح الأرض وفي باطنها.

ومن هذا الواقع لابد من صرخة هنا، وصرخة هناك، لإعادة بناء مداميك القيم الأخلاقية والإنسانية لكي تستقيم الحياة، حتى يعيش الكل تحت سقف السماء، باطمئنان بعيداً عن مصادر الرعب التي لايحمد عقباها، لافي الحيلة ولا في الممات، كما لابد من كبح الظواهر الفردية، التي تعيث فساداً من خلال خداع الآخرين بما تتمتم من شعوزات وتتنافق بها على الآخرين، وتتناقض في الوقت نفسه مابين قولها وعملها ما بين مبناها ومعناها، وهذه الظواهر الفردية المتعلبة بالذكاء، يجب كشفها وتقريبها، بفضح باطنها المتناقض مع سلوكها وتطهير البشر منها كجرثومة تعيث فساداً في الأرض من خلال ما تدعيه باعتصامها بالحبال النازلة من السماء، وهي بالحقيقة هذه النوعية لاتتعلق بهذه الحبال، إلا بالقدر الذي يعكس لها فوائد مادية تتعالى بها وتصعر الخد على من كان سبباً ملموساً بذلك، يقول الكاتب عبد الحسنين الخضر: « كما نرى

ونسمع في كل يوم أنباء كارثة تندلع في مكان ما من العالم، وتهددنا بشكل مباشر، أو غير مباشر، فنحن ننتقل من خوف إلى خوف، يجعل صورة المستقبل قاتمة أمامنا ويعرقل مشاغلنا ويشل تفكيرنا، وهذا ما يجعلنا نحس بحاجة إلى نظام عالمي للسلام، ونحس بضرورته أكثر من الأجيال السابقة التي كانت تعيش في محدودية لاتسمح بالانتشار الكبير والسريع لعدوى العنف الخطيرة التي وضعت في الأسلحة الحديثة، الأمر الذي يهدد الإنسانية.»[1]

« إن سعادة الإنسان وحمايته أمران مطلوبان، تسعى وراءهما كافة العلوم، ولانعترف بحضارة، أو مدينة رفيعة، لاتتمكن من تسخير كل ما حولها، وكل امكاناتها العلمية والتقنية لإسعاد الإنسان وتطوره والمحافظة على صحته، وجماله وتوازنه، بوضع الأنظمة الصحيحة السليمة التي تؤمن له الاستقرار والأمن، وهذه مسؤولية البشرية جمعاء التي عليها أن تتعاون، لتحل السعادة محل البؤس، والأمن والاستقرار محل الخوف والرعب، والنظافة والصحة محل التلوث والمرض والحب والجمال، محل الكره والبشاعة، وبهذا نكون متمدنين نحافظ على مدنيتنا وحضارتنا، ونكون أوفياء لها »[2]

[1] - المجتمع بين الوقاية والعلاج ص/ ٦٤/ عبد الحسنين الخضر

[2] - المجتمع بين الوقاية والعلاج المقدمة عبد الحسنين الخضر

مراجع الكتاب

القرآن الكريم

رسائل في مبادئ الحياة — ندره يازجي

تحف العقول .

الإنسان العربي والحضارة — لأنور الرفاعي

الجغرافية الاقتصادية — د. صفوح خير

علم الاجتماع — د. عبد الكريم اليافي

الأديان في تاريخ شعوب العالم — ت- د. أحمد فاضل

الله - — عباس محمود العقائد

في تاريخ الدين والفلسفة — ت- وتقديم صلاح حاتم

من الشرف إلى الكرامة — د. عادل العوا

وحدة الفكر الإنساني — ندره يازجي

لسان العرب — لابن منظور

مسرح الحب والجمال والفن — د. أسعد علي

فقه اللغة وسر العربية — أبو منظور الثعالبي

العيون في الشعر العربي — محمد سمير الحطاب

المجتمع بين الوقاية والعلاج — عبد الحسنين الخضر

طرطوس جمال وحضارة — أحمد غانم

فهرس